لقمان ديركي

من سيرة الهر المنزلي

قصص

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

لقمان ديركي

من سيرة الهر المنزلي

قصص

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

EXCERPTS FROM A HOME CAT'S BIOGRAPHY

Short Stories

By

Luqman Dayraki

First Published in September 2006
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-243-0

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

رسم وتصميم الغلاف: حسن إدلبي
الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦

المحتويات

مسرح البهجة	٩
موضوع الإنشاء: رحلة إلى عين ديوار	١٥
توربيدو	٢١
أحسن بريد في العالم	٢٧
بانتظار الرجولة	٣٣
الشاعر سينتحر	٣٧
البطل	٤٣
المريدان	٤٩
سهرة أدبية في اللاتيرنا	٥٩
ما لم يكن لي أبداً	٧١

حرية وبس ٧٧
علماء بهيئة سائقين ٨١
من سيرة الهر المنزلي ٨٧
أهلاً أخي زياد ٩٧
الفرسان الثلاثة ١٠٥
فوتبولجي ١١١
سينما فؤاد سينما الزهراء ١١٧
أمة فيروز ١٢٩

مسرح البهجة

كان معلم الرياضيات عبد الرحمن هاشم هو أستاذي في فن المسرح تحديداً، فقد كنتُ أشدّ الطلاب كسلاً في مادة الرياضيات، ولكنه كان ينجّحني دائماً مقابل المسرحيات التي كنت أؤلفها وأخرجها وأمثّل أدوار الشرّ فيها حصراً، فكنت ألعب دور أبي جهل الخبيث أو أبي لهب في المسرحيات الدينية، وكان يكفي أن أغمض عيناً لأبدو كالأعور الدجال، أو أن أضحك بوقاحة وأنا أقول: «واللات والعزة يا أم جهل» وكأن أبا جهل كان ينادي زوجته بهذا الاسم حقاً. أما في المسرحيات القومية، فكنت ألعب دور الإسرائيلي الشرير، فأضع رقعة سوداء على عيني بواسطة خيطٍ أسود لأبدو أعور كموشي دايان الحقير ابن الستة عشر حقيراً، وكنت أجيد العبرية فأقول «مرخبا» عوضاً عن مرحبا، و«شالوم» عوضاً عن السلام عليكم، و«أخمد» عوضاً عن أحمد.. إلخ.

وفجأة... وبينما كان الأستاذ عبد الرحمن يشرح لنا إحدى النظريات الرياضية على السبورة التفت إليّ وطلب مني أن أحضّر مسرحية دينية بأسرع ما يمكن، وكان يجب أن أبحث بنفسي عن المادة التي سأكتبها من دون أن يساعدني، وعندما طلبت منه المساعدة في اختيار الموضوع رفض وقال لي: «دبّر حالك».

بحثت في قصص المؤمنين والمشركين لأجد حالة درامية أؤلف من خلالها مسرحيتي، فاصطدمت بمشكلة أساسية عندما قال لي أستاذ الديانة المشرف على الحفل الذي سيقيمه المدرسة بمناسبة عيد المولد النبوي الشريف: «يُمنع منعاً باتاً تشخيص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أو الصحابة رضي الله عنهم أجمعين». قلت له: من أين لي بقصةٍ إذن؟! انهرني وقال: «دبّر حالك»، وكانت العادة أن يكون مدرس الديانة هو الرقيب على المسرحيات الدينية، أما الرقابة على المسرحيات القومية فكانت مؤلفة من مدرّسي التاريخ والقومية، المهم أنني عثرت على قصة تعذيب بلال الحبشي على يديّ «عمار بن ياسر»، هكذا اعتقدت، ولم أكن أدري أن عمار بن ياسر كان يتعذب أيضاً على أيدي المشركين. قلت لأستاذ الديانة إنني سأؤلف مسرحية عن عمار بن ياسر وبلال الحبشي فوافق فوراً، وبدأنا بالبحث عن شخص أسود ليلعب دور بلال الحبشي كي نوفر على أنفسنا المكياج على الأقل.

وجدت ضالتي في طالب من الصف الثامن أيضاً مثلي، ولكن من شعبة أخرى، اسمه «عصام»، وكان من المشاغبين والزعماء في المدرسة، كان أسمر غامقاً يصلح لدور زنجي كبلال الحبشي، قلت له: «تمثّل معي بالمسرحية يا عصام؟!»، فأجابني بسؤال: «دور عنتر؟!». قلت: «لا.. أهم من عنتر، إنه بلال الحبشي»، وعددتُ له

مناقب بلال وبطولاته التي اضطررت إلى إضافة الكثير عليها كي يقبل بالدور.. وبدأنا البروفات.

وفي يوم الاحتفال صنعوا لنا منصة من طاولات القاعات جميعها، وفرشوها بسجاد رخيص، وكانت مدرستنا في حلب اسمها «القنيطرة»، وبجانبها مدرسة ابتدائية ما زالت قيد البناء تدعى «جبل الشيخ»، اصطف عمال البناء وقتها ليتفرجوا على مسرحيتنا من فوق أكوام الحجارة التي سيعمرون بها المدرسة الجديدة بينما جلس الطلاب على أرض الباحة خلف الأساتذة والمدير الذين جلسوا على الكراسي، وصعدتُ خشبة المسرح وقد أغمضتُ عيني اليسرى كناية عن العَوَر، وبدأت بتمثيل دور «عمار بن ياسر»، فناديت للكومبارس الشرير الأزلي الذي يمثل دور تابعي أو حاجبي عادة، واسمه «دالاتي»: يا غلام.. أحضر لي بلال الحبشي فوراً لأريه كيف يترك ديننا ويلتحق بالدين الجديد، فردّ دالاتي عليَّ قائلاً: أمر مولاي عمار بن ياسر. هنا انتفض أستاذ الديانة كمن مسّه جنون، وصعد إلى الخشبة فوراً قائلاً لي: دور مين عم تمثل يا حيوان؟! فقلت: عمار بن ياسر، وعلى الفور صفعني وأفهمني أن عمار بن ياسر كان من أوائل المؤمنين مثل بلال وطلب مني أن ألعب دور أبي جهل ثم شرح للجمهور الخطأ المطبعي بعد أن بصق عليَّ وعلى دالاتي ونعتنا بالحيوانات، تابعنا المسرحية على مضض ودون حماسة، ولكننا ما لبثنا أن نسينا الإهانة وانهلنا بالركلات والصفعات على بلال الحبشي أو عصام الذي كان يقول جملته الوحيدة «أحدٌ أحدْ». وطلبت الصخرة كي نضعها على بطن بلال المزعوم، وكنا قد صنعناها من الكرتون، فقال الدالاتي: «أمر مولاي أبو جهل الخبيث»، وذهب لإحضارها، فوجدها مبللة بالماء و«مفنشة»، ولكن الدالاتي لا ييأس، فاخترق صفوف الجماهير على

الطريقة «البريختية»، وأمر العمال الواقفين على الأحجار في المدرسة المجاورة بحمل صخرة كبيرة، ففعلوا وصعدوا بها إلى المسرح وسط تصفيق الطلاب وذهول أستاذ الديانة، قال لي العامل: «وين أحطّ الصخرة أستاذ؟!» فأجبته بالفصحى: «هنا أيها الغلام الحقير»، وأشرت إلى بطن بلال المزعوم، فرزح تحت الصخرة، وجحظت عيناه، وشلّت حركته.

«أعطني السوط يا غلام» صحتُ بالدالاتي، فبحث عن السوط، ولم يجده، ربما ضاع في المدرسة المجاورة، ولكن الدالاتي لا ييأس، فخلع حزامه الجلدي المزيّن بصورة لاثنين من رعاة البقر مصنوعة من الحديد الخالص، وناولني إياه، فانهلت به ضرباً على عصام وأنا أقول: «هيا ارتدَّ عن دينك يا بلال»، وكان يرد بصوت مخنوق وعيون دامعة: «أحدٌ أحدْ» إلى أن انتبهتُ إلى أنني أضربه بالطرف الحديدي من الحزام، فصرخ بعد حين «يلعن.. لا تضرب بالحديدة»، وكانت شتيمته كافرة وخادشة للمقدسات، لذلك وجدنا أنفسنا تحت براثن أستاذ الديانة وهو يضربنا بعصاه الغليظة على أقدامنا ونحن نصرخ: «أحدٌ أحدْ» وسط شماتة الطلاب الذين كانوا يحسدوننا قبل لحظات.

ولم تنقضِ أيام على الحادثة المخزية حتى طلب مني الأستاذ عبد الرحمن مسرحية قومية عن فلسطين، فألفتها بعد ساعتين من طلبه وسط سخرية الطلاب وخاصة سعيد خطّاب مما اضطرني إلى الدخول في شجار عنيف انتهى بانتصارنا عليه أنا والدالاتي، وكانت خسائره «قميصاً ممزّقاً وأنفاً مدمّى وبقعة تحت عينه اليسرى». نهرني الأستاذ عبد الرحمن هاشم وقال إنني فنان ويجب أن لا أنزل إلى هذا المستوى، ولكنه لم يتورع عن صفع الدالاتي

الذي بقي كومبارساً شريراً حتى يومنا هذا. وفي اليوم التالي طلب مني الأستاذ أن أنتقي ممثلاً لدور البطولة أي دور الفدائي الفلسطيني الذي يقاوم بشمم وإباء الضابط الإسرائيلي الذي يعذبه، وهو أنا بالطبع. فاخترت عدوي سعيد خطاب للدور. ابتسم الأستاذ عبد الرحمن، وارتجل محاضرة عن الفن ونبله خاصة وأنني اخترت من تشاجرت معه لدور البطولة، وابتسم معظم التلاميذ ابتسامة العارف بينما ابتسم سعيد خطاب ببلاهة وهو الذي سيلعب دور عمره على مسرحنا العجيب، ولم يعرف أن وراء الأكمة ما وراءها.

انتهينا من البروفات وجاء يوم الاحتفال، فاعتلينا منصتنا إياها، وجلس سعيد خطاب على كرسي الاعتراف بينما كان الدالاتي يربطه ربطاً محكماً، وكنت أتمشى حوله مبتسماً، وكيف لا أكون مبتسماً وقد وقع عدوي بين يدي بنفسه وصار جاهزاً للتعذيب.. الحقيقي جداً. عندما صفعته لأول مرة ذُهل سعيد خطاب، فهذه الصفعة لم تكن كتلك الصفعات الخادعة اللطيفة التي صفعته إياها في التدريبات، ولما صفعته الصفعة الثانية عرف لماذا اخترته لدور «البطولة». وعندما بدأت أرفسه صار يفكر في الثأر بعد انتهاء المسرحية. «هيا اعترف يا أخمد» قلتُ لسعيد بعد أن صفعته ثلاث صفعات متتالية، فرد بشمم وإباء: «لن أعترف»، «هيا اعترف يا أخمد» ورفسته في خاصرته، فصرخ ألماً، وقال وهو ينظر إليَّ بحقد: «لن أعترف يا أخو الشرموطة»، وظن الجميع أن الشتيمة من ضمن المسرحية، فصفقوا له كونها موجهة إلى العدو الصهيوني الغاشم. وبعد مسلسل طويل من الضرب والركل والصفع دخل الدالاتي وهو يقول باللغة العبرية: «شالوم شالوم كتلوا عساكر»، ودخل الفدائيون وهم يحملون الرشاشات، وقال أحدهم: «سلّم نفسك يا صهيوني يا غاشم» بينما كان الآخر يفك وثاق سعيد

خطاب الذي اقترب كي يبدأ فصلاً طويلاً للانتقام مني، ولكنني كنت في تلك اللحظة أخرج مسدسي وأطلق النار في وسط رأسي وأسقط غير مأسوف على شبابي منتحراً على خشبة مسرح السعادة الأولى.. مسرح البهجة.

موضوع الإنشاء
رحلة إلى عين ديوار

(هذا موضوع إنشاء كتبه تلميذ في الصف الخامس من مدرسة الدرباسية الموحدة في وصف رحلة قامت بها المدرسة إلى عين ديوار).

استيقظنا في الخامسة صباحاً وركضنا نحو باص «الهوب هوب» الواقف أمام باب المدرسة، وكان ملوناً وجميلاً وقد كُتب عليه «سكانيا يتكلم والفولفو يتألم». وكان التلاميذ يقفون في الطابور بانتظام وهم يصعدون إلى الباص، وكان الأستاذ يحمل عصا مصنوعة من قضيب الرمان أهداه إياها ابن مدير الناحية، وكان كسلاناً، ولكن ترتيبه الأول دائماً، وكان الشيخ خضر السائق يشطف الباص، فكان التلميذ الذي يصعد يطرّش التلميذ الذي خلفه بالماء.

ثم قال لنا الأستاذ: «اجلسوا في الخلف»، فجلسنا وقال لنا: «تكتّفوا»، فتكتفنا، وجلس أصدقاء الأستاذ والآنسات في الأمام بينما جلس الأستاذ والآنسة ريما في «الجيم»[١] وانطلق الباص. فصفّقنا جميعاً، فقال لنا الأستاذ: «اخرسوا.. شو مفكرين حالكم بالطيارة؟». ووضع الشيخ خضر شريطاً للمطرب «صلاحو»[٢] وكان يغني أغنية كروانو، وكان الباص يطير طيراناً.

انزعج الأستاذ من أغنية كروانو، وطلب تغيير الشريط، ولكن الشيخ خضر لم يقبل، فأخرج الأستاذ الشريط من المسجلة، فانزعج الشيخ خضر، وضرب «فريناً»[٣] قوياً، فتوقف الباص، وارتطمت رؤوسنا بالمساند الحديدية، وسالت الدماء من أنوفنا، ومسحناها بثيابنا، وعاد الشيخ خضر بالباص إلى الدرباسية، وكان الباص يطير طيراناً.

أوقف الشيخ خضر الباص أمام باب منزله، وشدَّ حبل الزمور، فخرجت زوجته أمينة، وصنعتْ له إبريق شاي أكرك عجم، فجلس على الكرسي الصغير وهو يدخن سيجارة «الحمراء» الطويلة، وجاء أصدقاء الأستاذ، وتوسلوا إلى الشيخ خضر أن يصعد إلى الباص، ولكنه لم يقبل، وكانت زوجته أمينة واقفة بجانبه فخورة به، ثم جاءت الآنسات وطلبن منه أن يصعد كي نذهب إلى الرحلة، فرفض أيضاً، ثم اعتذر منه الأستاذ، وطلب منه أن يصعد كي نذهب إلى عين ديوار، ولكن الشيخ خضر انزعج وقال: «لن أذهب

---

(١) الجيم: المقعد الطولاني مقابل السائق.

(٢) صلاحو: مطرب كردي من القامشلي.

(٣) فريناً: أي فرامل.

إلى عين ديوار إلّا على جثتي»، وتذكرنا جميعاً درس البطل يوسف العظمة ومعركة ميسلون.

ثم جاءت الآنسة ريما وقالت له: «أنت أحسن سائق في العالم.. هيّا نذهب إلى عين ديوار من أجل التلاميذ»، فنهض الشيخ خضر، وضرب زوجته أمينة، ورفس إبريق الشاي، وصعد إلى الباص.. وانطلق الباص من جديد، فقرصته الآنسة ريما من خده، وقالت له: «شكراً يا خضر»، فضحك الشيخ خضر، ولمحنا سنّه الذهبية، ورمى شريط صلاحو من النافذة، وكان الباص يطير طيراناً.

وبدأ أستاذ الرياضيات يغني «كنا ستة على النبعة»، وكنا نردّ وراءه «إجا المحبوب صرنا سبعة»، وكان الأستاذ يصفق والآنسة ريما ترقص بعد أن خلعت إشاربها وربطته على خصرها، وكان صديق الأستاذ دربكجياً بعد أن ظنناه أستاذاً، وشاهدنا المناظر الطبيعية على الطريق، وشاهدنا الأنهار الجميلة والينابيع، وشاهدنا الزهور التي على شكل ساعات، وشاهدنا الجبال الخضراء والسهول الجميلة، وشاهدنا البقرة التي تسابق القطار ولم نشاهد القطار، وشاهدنا السدود التي تمنع الفيضانات وتولد الكهرباء، وشاهدنا الفلاح النشيط وهو يطرد الإقطاعي البغيض، وشاهدنا الفلاح النشيط وهو يحرث بالمحراث الحديث والفلاح العادي يحرث بالمحراث القديم، وكان المحراث الحديث أفضل بكثير، وشاهدنا رئيس الجمعية يدافع عن الفلاحين، وشاهدنا الصهيوني الجبان يهرب من أمام الجندي العربي، وكان الباص يطير طيراناً.

ثم وصلنا إلى عين ديوار فقال لنا الأستاذ: «اجلسوا تحت شجرة التوت»، فقال له حلّزوا: «ولكنها شجرة تين»، فقال له الأستاذ:

«اجلسوا تحت شجرة التين يا حمار»، وجلسنا، وكانت شجرة توت، ثم قال لنا الأستاذ: «تكتفوا ولا تتحركوا، أريدكم تلاميذ شاطرين في الرحلة»، وبدأ يلعب لعبة الغميضة مع أصدقائه والآنسات بينما كان الشيخ خضر يصنع الجمر لأركيلته، وكنا نبكي ونسعل من الدخان ما عدا حمو ومامو لأن أباهما قصّاب.

وكان الأستاذ يختبىء مع الآنسة ريما بين الأشجار، وعندما كانا يظهران كان فم الآنسة ريما يصبح أحمر مثل جمر أركيلة الشيخ خضر.

ثم قال لنا الأستاذ: «لا تسبحوا في النهر لأن فيه برّامات» وسبح هو والآنسات وأصدقاؤه، وكان الأستاذ يغطس تحت الآنسة ريما ويختفي، وكانت الآنسة ريما تصرخ ضاحكة: «آي»، ولكن آرتين لم يسمع كلام الأستاذ، وسبح في النهر، فغرق، فضربه الأستاذ ثم أنقذه، وصنع له التنفس الاصطناعي، وقال للآنسة ريما: «هيا اغرقي بسرعة».

ثم قال لنا الأستاذ: «هيا لنلعب بالكرة الطائرة». قسّمنا ثلاثة فرق، فريق خلف الأستاذ ليجلب الكرة، وفريق خلف فريق أعداء الأستاذ ليجلب الكرة، وفريق في المنتصف مكان الشباك، وكان الأستاذ يضرب الإرسال القوي، فترتطم الكرة برؤوسنا وكان يقول لنا: «وطّوا رؤوسكم يا عرصات»، ثم خسر الأستاذ، فمزق الكرة، وسمعنا صوت انفجارها العظيم، وضربنا، وجلس يلعب بالطرنيب الـ ٤١. وفجأة قال الأستاذ: «١٤»، فصفقنا له جميعاً، وقلنا له عدد الطرنيبات التي في ورق خصومه، ولكنه لم يربح من الـ ١٤

سوى اثنين، فضربنا جميعاً، ومزّق الورق، وقال لنا: «حضروا الطعام يا كلاب»، فهرعنا نحضّر الطعام، وكان حمو ومامو يشويان اللحم لأن أباهما قصّاب، وكان جاكو يغسل الصحون ورستم ينشفها، وكان ولاتو ينقل الصحون مع سلامو وشارو ويضعونها أمام الأستاذ وأصدقائه والآنسات، وقال لنا الأستاذ: أخرجوا سندويشاتكم لأن اللحم يوسخ أيدي التلاميذ، فأخرجنا سندويشاتنا، وبدأنا نأكل الزيت والزعتر، وكان سندويشاً لذيذاً، وكان الأستاذ وأصدقاؤه يأكلون الشقف والكباب والشيش طاووق.

ثم بدأ الأستاذ يصب الماء في الكؤوس حتى منتصفها ثم يصب الماء فوق الماء فيصبح حليباً، ثم شرب الأستاذ كأسين من الحليب، فبدأ يغني «ليه يا بنفسج»، ثم شرب كأساً ثالثة، فمدّ يده على شعر الآنسة ريما، ثم شرب كأساً رابعة، فمدَّ يده على شعر الآنسة سلوى، فصفعته صفعة قوية، وقالت له: «شو أنت أحول يا حقير»، فنهض الأستاذ غاضباً، ورفس كؤوس الحليب والصحون، وضربنا جميعاً، وقال: «اصعدوا إلى الباص فقد انتهت الرحلة يا حيوانات».

وانطلق الباص من جديد، ولم يدق صديق الأستاذ على الدربكة، ولم ترقص الآنسة ريما، ولم يغنِّ أستاذ الرياضيات «كنا ستة على النبعة» ولم نرد وراءه «إجا المحبوب صربنا سبعة»، ولم يصفق الأستاذ، ولم نشاهد المناظر الطبيعية، ولا الأنهار، ولم نشاهد السدود التي تولّد الكهرباء وتمنع الفيضانات ولا الينابيع، وشاهدنا الإقطاعي البغيض يضرب الفلاح النشيط الذي كان يستنجد برئيس الجمعية، ولكنه لا يردّ عليه، ولم نشاهد البقرة التي تسابق القطار، ولم نشاهد القطار، ولم نشاهد الفلاح النشيط وهو يحرث

على المحراث الحديث، وكان المحراث القديم أفضل بكثير، ولم نشاهد الجبال ولا البحيرات ولا السهول الخضراء، ولم نشاهد شيئاً..

ثم عدنا مسرورين.

توربيدو

على الرغم من أن الجو كان ربيعياً لطيفاً، فقد مللت الانتظار. يجب أن أصعد في هذا التاكسي، بُح صوت السائق وهو ينادي: «درباسية.. درباسية»، ولكن ما من أحد ليصعد. كان الركاب ينتظرون سيارة أخرى، ولكن الجهلة منهم صعدوا مع السائق ذي الصوت الذي يبح الآن. كان كراج القامشلي مزدحماً بسيارات التوربيدو التي تمضي إلى القرى والبلدات المجاورة، وكانت حركة الركاب كحركة النحل بين صعود وهبوط ما عدا الركن الذي يقف فيه ركاب الدرباسية، فقد كانوا واقفين كالتماثيل وهم لا يأبهون لصوت السائق الذي ينقصه لكي ينطلق بضعة ركاب نظراً لضخامة سيارته الأميركية القديمة التي تتسع لعشرة أشخاص أو أكثر، ولكن لماذا هم جهلة الذين صعدوا معه؟!

لأنها سيارة البريد.. هذا السائق سيوزع البريد على القرى في طريقه إلى الدرباسية، فلا تكن جاهلاً.. قال لي أحد الركاب العتاة.

إذاً سأنتظر حتى تأتي سيارة أخرى، إلّا أن جاهلاً قادماً سرعان ما أغراه صوت سائق توربيدو البريد وصعد.. وهنا تحمّس السائق وشغّل المحرك ثم مدَّ رأسه من النافذة ونادى: «درباسية واحد..». نظرت إلى وجوه الركاب الجامدة حولي ثم انسللت من بينهم خجلاً وصعدت في السيارة وأنا أعرف أنهم يقولون في أنفسهم «الجاهل لم يصمد..» وانطلقنا.

كنا عشرة ركاب جمعهم الجهل والغباء لأنهم صعدوا في هذه السيارة، وكان السائق يستمع إلى عزف بزق لحسن، وهو عازف الدرباسية الأول، ويدخن سيجارة «كنت» عندما انحرف إلى الطريق يميناً واتجه عبر الأرض الموحلة إلى قرية صغيرة وهو يضغط على الزمور بإيقاع مرح.. وما إن توقفت السيارة حتى كان أهالي القرية قد تجمعوا حول السيارة نساء ورجالاً وأطفالاً حفاة، أخرج السائق «أمين رمو»، وهذا اسمه، كيساً مكتوب عليه اسم القرية، وبدأ بتوزيع الرسائل ثم التفت إلينا وقال: «من منكم يعرف القراءة؟» رفعت يدي وكذلك رفع شخصان آخران أيديهما.. نزلنا وبدأنا بقراءة الرسائل لأصحابها، وترجمتها أيضاً إلى الكردية، وكذلك كان السائق أمين يفعل مع أحد أهالي القرية الأمية عن بكرة أبيها.. وفجأة سمعنا إحدى النسوة وهي تولول وتضرب نفسها بينما زوجها يبكي بصمت. التفتنا.. «لقد قُتل ابنها في تركيا. هكذا تقول الرسالة»، قال أمين بشكل اعتيادي جداً.

دخلنا جميعاً إلى منزل أهل القتيل، وبدأنا نهدئ الأم والأب، وبعد

أن هدأ الأب تماماً ركضنا باتجاه الأم التي كانت تشدّ شعرها، وحاولنا مع بقية نسوة القرية تهدئتها حتى تمَّ إدخالها إلى إحدى الغرف وصوتها يلعلع باسم ابنها القتيل، غمزنا أمين كي ننصرف، ولكن الأب وقف فجأة وخرج عن صمته «لن يتحرك أحد قبل تناول الطعام على روح المرحوم».. وجلسنا.

ذبح الأب خروفاً، وبدأ بعمليات السلخ والتنظيف ونحن نتفرج بوجومٍ وحزن مفتعلين.. وبعد أن انتهى من عمليات التقطيع نادى على زوجته بصوت عالٍ، فأتت مهرولة وهي تحمل حلة ضخمة وبنشاط غريب، ثم وضعت بعض الحطب بين الأحجار التي يسمونها الأثافي وأوقدت النار.

مع غروب الشمس كنا قد خرجنا من قرية المرحوم باتجاه الدرباسية من جديد وهي التي لا تبعد أكثر من ستين كيلومتراً عن القامشلي، وبعد خمس دقائق من انطلاقتنا كان أمين ينحرف يساراً وهو ينبّه سكان القرية بالزمور إلى قدومه، نزلنا بنشاط كي نسرع بعملية القراءة والترجمة لأصحاب الرسائل، وكانت سيجارة «الكنت» تلتمع بين شفاه أمين عندما أطلقت إحدى النسوة زغرودة طويلة، فاستعذنا بالشيطان من فخ جديد، لقد تزوج ابنها المقيم في ألمانيا وبالتالي أصبح ألمانياً على حدّ تعبير زوجها الفخور بابنه الذي كسر عين الألمان.. وبالطبع هنأناهم بابتسامات عريضة وكلمات منمقة، وانصرفنا إلى السيارة، ولكن هيهات.. فقد وصلت دماء الخروف المسكين إلى السيارة قبلنا.. «لن يذهب أحد.. الليلة عرس ابني الألماني» قالها الأب من دون أن ينتظر جوابنا.

خلال نصف ساعة كان عازف البزق وتابعه ضابط الإيقاع يتلاعبان

بأجساد الراقصين بينما كان المطرب في طريقه إلى القرية بعد أن أرسل الأب سيارة بيك آب خصيصاً لإحضاره من العاصمة.. أي القامشلي.

انتهت الحفلة، ولكن حفلتنا لم تنتهِ، كان المطرب يحدثنا عن حفلاته في ديريك وعين ديوار والدرباسية وعامودة وهو ينقض على اللحم المتناثر فوق البرغل المطبوخ، وبالطبع عرفنا أننا سننام هنا لأن هناك حفلة في الصباح أيضاً، ولكن على إيقاع الطبل والزمر. غمزنا أمين، فهجمنا على الطعام، ونمنا ونحن نشاهد شوارع الدرباسية في أحلامنا.

صباحاً كان علينا أن نأكل أيضاً بعد انتهاء حفلة الطبل والزمر، وننطلق من جديد باتجاه الدرباسية بعد أن عانقنا والد العريس الألماني وهو يحدثنا عن مزايا الجنسية الألمانية وعن جمال مدينة ميونيخ وضخامتها.

لعشر دقائق تماماً لم ينحرف أمين بالسيارة، وكنا نخاف أن نسأله إذا ما كان علينا أن نمرّ بقرية أخرى، وانحرفت السيارة من جديد، وبدأت ملحمة جديدة، فقد وصلت رسالة لأحدهم من شقيقه الذي لم يسمع عنه شيئاً أكثر من أربعين عاماً، وبالطبع فقد كان هناك خروف يبتسم بسعادة للخبر الذي أودى بحياته بين طعن القنا وخفق البنود.

وكالعادة استمعنا إلى مزايا الشقيق الغائب وعبقريته وكرمه وشهامته على الرغم من أنه اختفى عندما كان طفلاً، وانطلقنا من جديد، ونمنا في قرية أخرى بسبب نجاح أحد أبنائها في البكالوريا إلى أن

وصلنا إلى قرية تل أيلول التي تبعد خمسة كيلومترات عن الدرباسية. وعندما انحرف أمين إليها أشرت إليه أن يتوقف. نزلت من السيارة، وقلت لسائقها أمين: «سأكمل مشياً إلى الدرباسية»، فنزل الركاب جميعاً مستحسنين الفكرة.. ومشينا وكان الظلام قد لفّ المكان، فتسنى لنا أن نشاهد أضواء مدينة ماردين على هضبتها الجميلة بينما كانت سيارة أمين تخترق قرية تل أيلول، تبادلنا النظرات مبتسمين ونحن نردد جملة واحدة على الأرجح في دواخلنا «كم نحن حمير.. أي جاهل يصعد في تكسي البريد»، ولكن صوت العيارات النارية المصوبة نحونا من حراس الحدود الأتراك جعلنا نركض مهرولين خلف سيارة أمين التي كانت تطلق زماميرها المرحة ونحن نصرخ به أن يتوقف، لكن هيهات فقد غاصت السيارة في الظلام بينما كانت البيوت التي تضاءُ شيئاً شيئاً فشيئاً في قرية تل أيلول تقودنا إليها لاهثين.

أحسن بريد في العالم

إنه بريد الدرباسية، تلك البلدة الواقعة على الشريط الحدودي السوري ــ التركي، وبالتحديد فهو ليس بريد الرسائل وإنما بريد الاتصال الهاتفي، حيث إمبراطور الاتصالات في الزمن المفقود يعقوب يوسف.

لم يكن يعقوب يسمح بمجرد أن يفكر أي من المديرين المتعاقبين على هذا البريد في تقسيم دوام المقسم إلى فترتين، فهو كافٍ ووافٍ، ومستعد لأن ينام في المقسم إذا دعت الضرورة لذلك، ولِمَ لا؟ فكما قدّم كل ما يمكن أن يقدمه إنسان متفوق لمهنته، فقد قدّمت مهنته إليه الاحترام ومحبة الناس اللامتناهية والإعجاب.

في الثامنة صباحاً يكون يعقوب قد أمسك بخيوط الدرباسية بيديه

الخبيرتين، وصوته الذي لم يقل كلمة «لا أعرف» أبداً، وتبدأ الاتصالات مع رشفة القهوة الأولى، يأتي صوت من حلب وكأنه من الآخرة «مرحباً.. مقسم الدرباسية؟» يتابع الصوت «إذا سمحت أوصلني بفرج حوره» وهنا يجيب يعقوب بسؤال تقليدي «من تريد بالضبط من بيت فرج حوره؟»، فيجيب الصوت «أريد خالد» فيجيبه يعقوب على السريع «خالد ذهب إلى دمشق ليلة البارحة لإنهاء معاملة الجرارات الجديدة».. يعود الصوت ويطلب «حسناً أريد عبد الباقي» فيجيب يعقوب مرة أخرى «عبد الباقي في الحصاد ولن يعود قبل يوم الجمعة». يعاود الصوت طلباته:

ــ إذاً سأحدث رويدة.. أمهما.

ــ رويدة في عامودة عند خالتها حياة لأن ابن خالتها محمد سيتزوج بعد الموسم.

ــ طيب .. فرج وينه؟

ــ فرج يشرب القهوة الآن في بيت ملاّ أمين.. هل أوصلك به؟

ــ إذا سمحت.

ويتحدث الصوت القادم من حلب مع فرج حوره الذي كان يرتشف آخر رشفة من فنجانه عندما قال له الملا أمين: «تلفون إلك من حلب حجي».

ولا يضيع يعقوب وقته فترة الغداء فهو يتمشى في سوق الدرباسية ويستمع إلى الشاردة والواردة وسط آيات الترحيب والحفاوة، وعندما يعود إلى المقسم يكون رنين الهاتف قد هزّ أركان المبنى طوال فترة غيابه وما من مجيب.

ــ ألو .. مقسم الدرباسية؟

ــ ألو .. مقسم الدرباسية معك.. تفضل.

ــ ممكن محمود حاج دحام؟ أنا أحكي معك من دمشق.

ــ مين بدّك منهم تحديداً؟

ــ بدي راغب.

ــ راغب بحلب .. صار سنة تانية ري في كاف.. وهلأ عنده معسكر تدريب جامعي.

ــ طيب ناظم.

ــ هوهو.. ناظم ببلغاريا .. صار سنة تالتة طب بشري.

ــ وخالد؟

ــ خالد سافر لبلغاريا كمان عم يدرس طب أسنان، وهلأ فريق الدرباسية ما عندهم حارس مرمى.

ــ ليش؟

ــ لأنو خالد كان حارس المرمى.

ــ هاها. طيب أعطني غالب.

ــ غالب بالغنامية[1]، لأنو موتور المي معطّل وما رح يرجع للمسا.

ــ ومحمود؟

ــ محمود نايم.. الساعة ستة بيفيق.

ــ وأم غالب؟

---

(١) الغنامية: قرية قرب الدرباسية.

ــ أم غالب ببيت إبراهيم حاج محمد.. ثواني وبوصلك فيها.

وهكذا تتناول أم يوسف السماعة ثم تقول لأم غالب التي كانت تحكي عن بلغاريا والبحر الأسود «تلفون إلك إم غالب.. من الشام».

ومساء عندما تشتد حمى الطرنيب والتركس في البيوت يتناوب الضيوف على استقبال المكالمات من دون أن يحتاجوا إلى أن يقولوا لأحد أين هم.

فها هو حمادة يرد على مكالمة وهو جالس في بيت جوزيف دريج في حلب دون أن تعلم زوجته حتى أنه هناك، بينما سيرد جاكو على مكالمة من اللاذقية وهو في طرطوس عند صديقه في المدرسة التي يدرّس فيها ووو.. إلخ. وذلك من تجليات وقدرات يعقوب يوسف صاحب أحسن بريد في العالم.

وأخيراً وصل اختراع البريد الآلي إلى الدرباسية وصار بإمكان أي كان أن يطلب ٠٥٢ ثم الرقم المطلوب إذا كان يتحدث من خارج محافظة الحسكة، وأضحى بالتالي يعقوب يوسف من مخلفات ومنسيات الزمن المفقود ولكن.

صار بالإمكان الآن أن يقول شخص لآخر «اتصلت عشر مرات ولم أجدك».

ــ أين كنت البارحة؟!

ــ دخت عليك السبع دوخات.

ــ كذاب كنت في البيت.. لم أتحرك.
ــ تلفونك كان مشغولاً عشر ساعات.
ــ ما بعرف وينه.
ــ امبارح كان هون.

ــ بس يجي بخليه يحكي معك.. إلخ. من جمل الغياب والتغيب والتهرب.. وصار مألوفاً أيضاً أن يرن التلفون في منزل ما منتصف الليل، فيستيقظ أهل البيت جميعاً، ولكن لا أحد يرد على الخط، أو أن ترد فتاة فتسمع صوتاً يقول لها «يسلملي هالصوت».

ــ مين عم يحكي؟
ــ ردّ يا حمار..
ــ العمى شو بغل!!
ــ يا حيف على شواربك يا واطي.
ــ لو بتكون زلمة بتقول اسمك.
ــ عرفتك يا ابن الحرام.. بكرة بفرجيك.
ــ بترضى حدا يقول هيك لأختك؟

وتذكر الجميع هنا يعقوب يوسف الذي اختفى من حياتهم فجأة وهم يحتفلون بالهاتف الآلي، وتأسف الجميع على خيانتهم لإمبراطور الاتصالات، وبحثوا عنه ما عدا «حمِه» المتزوج من أربع نساء لأنه كان يستقبل كل ليلة هاتفاً أنثوياً مجهولاً وخلاباً، ولم يعرّف الصوت الأنثوي عن نفسه حتى عندما عرض «حمِه» الزواج، فقد كانا يتفاوضان على الزوجة التي يجب أن تُطلَّق لأن الشرع لا

يسمح بخمس. «حمه» اختار أن يطلّق «عيشة» بينما الحسناء المجهولة تطالبه أن يطلق مدللته «سينَم».. وما زالا يتفاوضان حتى الآن.

لم نعرف قيمة يعقوب يوسف الحقيقية وظللنا نبحث عنه دون جدوى منذ أن تعرفنا على رقم مشؤوم يدعى ٠٥٢؟!!

بانتظار الرجولة

بعد أن نجحت إلى الصف العاشر بدأ هاجس بزوغ ذقني ينتابني، فهي لم تبزغ حتى الآن في حين كان زملائي يتفننون بحلاقة ذقونهم، وكنت منذ طفولتي أحسد الابن الأصغر لصديق والدي لأنه كان يلبس شورتاً يبرز الشعر الكثيف في سيقانه وأنا بلا شعر في سيقاني.. وكنت معقّداً من ساقي الرفيعتين النحيلتين، لذلك كنت أرتدي السراويل الطويلة حتى في درس الرياضة، وعندما وصلت إلى البكالوريا ظلت لحيتي ممتنعة عن البزوغ، فتمنيتُ أن أرسب في البكالوريا كي لا أدخل إلى الجامعة دون لحية. وبناء على أمنيتي تصرفتُ، فصعتُ وضعتُ وفعلتُ كل ما يخطر على البال ما عدا الدراسة ولكنني للأسف.. نجحت.

دخلت إلى الجامعة مملوءاً بالعقد خاصة بعد قراءتي لكتاب

«اللامنتمي» لكولن ويلسون. و«الغريب» لألبير كامو، و«الوجود والعدم» لجان بول سارتر. وكان كتاب الغريب لكامو مقرراً في منهاج السنة الأولى لقسم الأدب الفرنسي، فازدادت عقدي أنا طالب الأدب الفرنسي المستجد الذي دخل هذا الفرع بسبب عقد والده أي أبي من عدم معرفته باللغات الأجنبية فجرب تعلمها بي.

كان جاري عبد المحسن عديم اللحية مثلي، وكان يحلقها يومياً كي تبزغ، ونصحني بذلك، ولكن لا جدوى، فهناك أماكن كثيرة فارغة في وجنتي، وازدادت عقدي عندما درجت موضة اللحى الطويلة عند الشيوعيين، فكنت أجد نفسي صغيراً أمام هؤلاء الذين يتسلحون باللحى الطويلة تيمناً بماركس وإنجلس وسكسوكة لينين التي لم أستطع تقليدها أيضاً. وعلى الرغم من إعجابي بالاشتراكية والشيوعية فقد قررت وبسبب عدم بزوغ لحيتي أن أكون وجودياً لأن سارتر كان حليق الذقن.

واستطعت خلال فترة وجيزة أن أُعرَف بكوني وجودياً، وقد استلمني أحد الشيوعيين، واسمه صلاح برو في النادي العمالي، وناقشني في المفاضلة ما بين الشيوعية والوجودية، وكنت أستفزه، وأفضل الوجودية من دون أن أعرف شيئاً عنها كوني لم أفهم شيئاً من كتاب الوجود والعدم، كان صلاح يعرف عن الوجودية الكثير، ومن معلوماته التي كان يرميها كي يثبت أفضلية الماركسية كنت أتسلح وأواجه وأناقش باستماتة حتى انقسمت الطاولة إلى قسمين أحدهما معي أنا الغرّ طالب السنة الأولى الذي بلغ بالكاد السابعة عشرة من عمره لأن أبانا يوسف كاتو رفض أن أدرس الصف الأول ووضعني في الصف الثاني مباشرة، فزرع فيَّ عقدة الصف الأول

التي عوضتها بأن جلست أربع سنوات في السنة الأولى من قسم الأدب الفرنسي.

كانت اللحى منتشرة بشدة في تلك الفترة، وكان أصحابها يتفننون بتشذيبها وتهذيبها، المتدينون من جهة، والشيوعيون من جهة، بينما كنت أمشي بينهم دون لحية ألحق برجولتي الهاربة.

وبزغت لحيتي، ولكن لحية خفيفة يجب أن أحلقها على الدوام كي لا تظهر عيوبها، فهي موزعة بشكل سيىء وقليل على وجهي.. ومرة نسيت حلاقتها لأيام، فقال لي محمد آله رشي: «احلق لحيتك لأنك إذا لم تحلقها لن يظن الناس بأنها لحية بل سيظنون بأن وجهك وسخ..». وتعقدتُ أكثر.

سنوات وسنوات مرت، وانهار الاتحاد السوفياتي، وحلق الجميع لحاهم، ونسيت عقدتي إلى أن قالت لي حبيبتي: لا تحلق ذقنك، فانصعت لرغبتها، وخرجت بعد شهرين من البيت بلحية فوضوية وأنا أسمع جملة واحدة من الجميع: «ياي.. شو حلوة دقنك.. مثل دقن غيفارا».

الشاعر سينتحر

تمنيتُ أن أصاب بالسرطان، أولاً لأن الكلمة أعجبتني، وثانياً كي يشفق أهلي وأصدقائي وأقاربي عليَّ ويندموا على كل ما اقترفوه بحقي من جرائم جسدية ومعنوية ومادية، فها هي الحبيبة التي رفضت حبي وطردتني شرّ طردة من حياتها وشارع بيتها مستعينة بأولاد حارتها الأشاوس تأتي إليَّ جاثية بعد أن علمت أن موتي قادم لا محالة. وهي تبكي وتصارحني بحبها وندمها على رفضها لي، ولكنني سأبتسم بحزن، وأقول لها ودمع العين يسبقني: «لا.. انسيني أنا ميت ولا ذنب لكِ كي تترملي باكراً». عندها ستنهمر الدموع من عينيها بسخاء، وستبدأ بالنحيب: «لم ولن أحب غيرك.. لا تمت أرجوك». وبهدوء شديد سأداعب شعرها بكفي وأنا أنظر إلى الأفق وأقول: «الحي أفضل من الميت.. ابحثي عن حبك بين الأحياء». وستزداد فتاتي عويلاً حتى تنهار بين قدمي.

وسوف يشعر أبناء عمتي أنهم كانوا حقراء في التعامل معي عندما رفضوا انضمامي إلى فرقتهم الموسيقية كمغنٍ، بل شبهوا صوتي بنهيق الحمار، وسوف يأتون إليَّ مع آلاتهم الموسيقية متضرعين أن أسجل شريطاً معهم فوق أحد أشرطة أم كلثوم، ولكنني سأعتذر بحزن مشوب بالكبرياء وأقول: «أنا أرفض منطق الشفقة في الفن».

وسأستمع إلى حديث نادم بين أبي وأمي في غرفة النوم وهما يبكيان، فأمي تندب وتشدّ شعرها وهي تقول: «آخ.. لماذا لم أتركه يسافر إلى أوروبا كي يدرس السينما..؟»، بينما سيضرب أبي رأسه بالجدار باكياً وهو يقول: «آخ.. لماذا لم أعطه المئة ليرة.. لماذا؟».

ثم نسيت كلمة السرطان، وأعجبت بفكرة الانتحار.. وفكرت في محاولة انتحار فاشلة تودي بي إلى المشفى، وهناك سأكون في غيبوبة، ولكني سأسمع كل الأحاديث التي تدور حولي. فها هو مدير مدرستنا يعدد مآثري ومناقبي على الرغم من أنه لم يكن يعلن بداية اليوم الدراسي قبل أن يصفعني. وسأسمع عمي الذي طردني من بيته كي لا أفسد ابنه المثالي يشيد بذكائي ويصفع ابنه المثالي الذي يبكي بجانبه لا تأثراً عليَّ بل بسبب الصفعة.. ولكي يكون حجم الألم والندم أكبر سأوقت موعد الانتحار بعد فاصل من الضرب المروّع بحقي من قبل أبي وأمي معاً، كما أن الشعراء الذين سخروا من شعري سيطأطئون أمام جسدي الواهن وهم يرددون في دواخلهم: «إنه شاعر حقيقي احتج على واقعه بالانتحار»، وسيعيدون النظر في قصائدي التي شتموها سابقاً، ويعتبرونها تحفة فنية رامبوية الطابع نسبة للشاعر الفرنسي آرثر رامبو.

وقد سمعت عن طالب في كلية الطب انتحر في أثناء قيامه برحلة ترفيهية مع زملائه من أجل فتاة كان يحبها، وأعجبت به. ثم أعجبت بالشاعر خليل حاوي الذي انتحر احتجاجاً على الصمت العربي عام ١٩٨٢ تجاه حصار بيروت، ومع ذلك فلم أجرؤ على الانتحار إلّا في خيالي، وفجأة اتصل الصحافي وليد أسعيد، وطلب مني أن أحضر إلى بيت حكم البابا، وهو شاعر أكبر مني بأربع سنوات، وعندما دخلت وجدت حكم جالساً ووليد وإياد الغفري يتناقشون في موضوع ساخن، كان حكم مصراً على الانتحار، وكانا يمنعانه بخوف متعقل، وكان يشرح لهما كل مرة عن الطريقة التي سينتحر بها، فتارة سيطعن نفسه بسكين المطبخ لينهض الاثنان ويحتجا: «لا تحكي هيك يا حكم» أو «بنعرفك بتحب الحياة يا حكم»، وتارة أخرى سيتناول علبة من الحبوب المنومة وينام على أنغام «ضربات القدر» لبيتهوفن خاصة أنه اهتدى إلى الموسيقى الكلاسيكية مؤخراً، وتارة سيرمي بنفسه من الطابق الرابع إلى محطة البنزين أسفل منزله، واحتياطاً سيحمل سيجارة مشتعلة في يده. وكان الاثنان قد وصلا إلى مرحلة البكاء على إصرار هذا الصديق المحبّ للحياة على الانتحار بينما كنت واقفاً أمام باب البراد الجاثم في الغرفة الوحيدة التي سُمّيتْ عبثاً بمنزل، آكل ما تيسّر من الأطعمة التي تحضرها عمة الفقيد القادم.

وفجأة وجّه حكم حديثه إليَّ: «سأسألك لا كصديق وإنما كشاعر».. وبعد أن شرح أسبابه الغرامية سألني: «هل أنتحر أم لا؟». نظر الصديقان إليَّ وهما ينتظران مني أن أنقذ الشاعر من الغياب، بينما فكرت أنا المتشرد الشاعر البوهيمي الذي لا سقف يؤويه في العاصمة على اعتبار أنني من أدباء الأقاليم عن سبب اتصالهم بي، وحدست أنهما سيطلبان مني الإقامة عنده كي أمنعه من الانتحار،

فأجبته وفمي مملوء بالكوسا محشي الذي طبخته عمته: «لو كنت مكانك لانتحرت».

وهكذا أصبحتُ مقيماً بغرفة حكم بصفة حارس على حياة شاعر قد تفقده الأجيال متنعّماً وحدي في العلن بالطبخات المتنوعة التي تحضرها العمة كل يوم لأن حكم كان يأكل سراً، ولكنه كان يرفض الاعتراف، فقلت له إنني سأتأكد من كميات الطعام قبل خروجي لأعرف إذا كان يأكل أم لا. وبالفعل بدأ الشاعر الفقيد يقتات سندويش الشاورما كي يوهمنا بأنه لا يأكل بينما كنت أهزّ رأسي بأسف مصطنع وأنا أنهره كي يأكل، وأتلذّذ وحدي بنعمة الطبخ المفقودة في عالم الشعراء. كان يحدثني عن الطرق التي سيستخدمها في الانتحار، وكنت أتثاءب وأنا غير مبال بما سيفعله من أهوال بنفسه أثناء نومي، والأنكى من ذلك أنني كنت أتركه وحيداً طول النهار وأعود ليلاً وأنا ثمل لا أحتاج إلى أكثر من جملتين انتحاريتين منه حتى أكون غائصاً في عالم الأحلام.

بدأ حكم يشتاق إلى السهر في الخارج، فخرج بفتوى عظيمة عندما قال لي ولإياد إنه يريد أن يسهر في مطعم قصر البلّلور لأن ساعة الصفر قد حانت وعليه أن يودع هذا المكان الجميل. وهناك أكل المنتحر ثلاث سمكات وحده وشرب بطحتيْ عرق وهو يتحدث عن انتحاره بينما كانت أرواح الأسماك تئنّ بين أضراسه المتوحشة، ثم طلب الحساب ونهرنا كي لا ندفع بشهامة غير متوقعة، ودفع الإكراميات السخية للنادلين، فدغدغني إحساس للمرة الأولى بأن هذه الأفعال هي أفعال شخص سينتحر فعلاً.

وبعد أيام ضجر حَكَم مني بسبب لا مبالاتي أولاً وانفرادي بالطعام

ثانياً خاصة أنه ملَّ من سندويش الشاورما السرّي، فأعلن أنه اهتدى إلى الطريقة المثالية للانتحار، وهي مكوّنة من مرحلتين، المرحلة الأولى سيتناول فيها الحبوب المنومة ويقفل باب الغرفة والنوافذ بإحكام شديد. أما المرحلة الثانية، فسيفتح فيها أسطوانة الغاز وينام بسلام مختنقاً بالغاز. فكرت للحظة، وأصبت بالرعب من أن أنام ولا أستيقظ إذا ما فعل ذلك.. فانقلب نعيمي جحيماً، وصرت متيقظاً لا أنام أبداً حتى ينام، وبدأت أستيقظ رعباً عند كل حركة يقوم بها جسده النائم، وكان يوقظني باكراً إمعاناً في الانتقام مني حتى نسينا معاً موضوع الانتحار، وما زلت أشاهد حَكَم إلى الآن، وقد أصيب بمرض السكري، فتراه لا يشرب إلّا الدايت كولا، ولا يأكل الدهون والشحوم متقيداً بصرامة بتعليمات الطبيب خوفاً من ارتفاع السكري، ما زال حياً يرزق.. ويتحدث على الموبايل.

البطل

أن تكون من أهالي الدرباسية وتقطن في حلب، فهذه مصيبة، لأن عليك استقبال أهالي الدرباسية القادمين من أجل المعاملات أو للعلاج في المستشفيات الحلبية أو للبحث عن قريب ضائع.. إلخ. وبوجه بشوش وصدر رحب وكرم لا متناهٍ، ويجب ألا تُظهر امتعاضك أو انزعاجك من أية حادثة تمرّ بها في أيام وجودهم عندك وإلّا اعتبروا هذا موجهاً ضدهم شخصياً، أما أن تكون صبياً مراهقاً، فهذه مصيبة أكبر من تلك، إذ إن مهمة مرافقة هؤلاء «السواح» ملقاة على عاتقك، وهكذا كنتُ المنكوب الأكبر في بيتنا لأنني الصبي الوحيد على ست بنات شامتات بي عندما أرتدي ملابسي صباحاً وأخرج في رحلة سياحية إلى الطبيب مع ضيوفنا المرضى.

ولا مجال للتهرب من هؤلاء، فقد جرّبتُ مرة ذلك عندما خرجت

في رحلة سياحية مع زوج خالتي نورا التي كانت ضائعة في تركيا وعثرنا عليها بعد أربعين عاماً. كان زوج خالتي يريد أن يتسوّق، وكان عليَّ أن أرافقه وأن أترجم له، وظللنا في سوق الساعات لمدة ثلاث ساعات وهو يبحث عبثاً عن ساعة من ماركة «سايكوبيش» كما يقول أو «سايكو ٥». وعندما ضقت ذرعاً به ومن مهمتيّ المرافقة والترجمة أوصلته إلى مستودع الأدوية الذي يملكه والدي وقلت له أن ينتظرني لدقائق كي أبحث له عن ساعة الـ «السايكوبيش».. وهربت، وبالطبع، فإن والدي الذي ابتُلي بالسائح المتسوّق في مكتبه، حطّم أضلاعي، ومارس عليَّ شتى أصناف التعذيب الجسدي والمعنوي كي لا أفكر مرة أخرى مجرد تفكير بأن أجعله يبتلي بهكذا نوع من السياح.

وفي مرة أخرى تركت إحدى السائحات المريضات عند الطبيب وقد وضعتُ أرقام هواتف بيتنا ومكتب أبي في يدها المرتعشة وهي على سرير الفحص بعد أن انفجر رأسي من الترجمة عندما قالت لي إن الحالب هو الذي يؤلمها. وقتها لم أكن أعرف الكلمة الكردية التي تعني الحالب بالعربية، فتركتُ الطبيب مع مريضته الغامضة، وفركتها باحثاً عن معجم طبي كردي عربي لأنني سأحتاج إليه كثيراً، فما أكثر السواح المرضى في بيتنا.

وفي يوم مشهود خرجت في الصباح الباكر لأوصل السيد «أحمد بيزكه» وزوجته «غزي» إلى محطة القطار، وكنت في الثالثة عشرة من عمري وقتها. وبعد أن أجلست أحمد وزوجته في مقعديهما طلبتُ أن أودعهما، ولكنه أصرَّ عليَّ أن أبقى قليلاً، فالقطار لم يمشِ بعد، وهكذا كلما طلبتُ أن أمضي كان يصرّ عليَّ أن أبقى وكأنني جالس في بيته إلى أن تحرك القطار، فركضتُ مسرعاً إلى أقرب

باب. وبعد لحظات من التفكير والجبن رميت نفسي مغمضاً عيني، وتدحرجت على الأرض، ثم انتبهتُ لبطاقتيهما في يدي، فركضت خلف القطار وأنا أمدّ البطاقات لأحد الأشخاص الواقفين قرب الباب، ولكن دون جدوى.

ذهبت إلى المسؤولين في المحطة، وشرحتُ لهم الوضع، فأرسلوا برقية إلى المحطة التالية، وهي محطة «جبرين» وسوّي الأمر. لقد ذاق العجوزان الويلات على يدي المفتش إلى حين وصولهم إلى جبرين وصعود الموظف الوحيد في محطتها إلى القطار كي يبرىء المتهمين، فدهش أحمد بيزكه لذكائي بالإضافة لاندهاشه ببطولتي عندما رميت نفسي من القطار كما سمعت فيما بعد.

بعد شهر وصلتنا الأخبار إلى حلب، لقد أصبحت بطلاً قومياً في الدرباسية بفضل أحمد بيزكه، فهو يدور في سوق الدرباسية ويتحدث عني، وفي كل مرة يضيف عشرة كيلومترات على سرعة القطار عندما رميتُ نفسي منه، كما كان يتلذذ بلفظ كلمتي «برقية» و«محطة جبرين» للمستمعين المندهشين من ذكائي الخارق أنا الذي خرجت حماراً رسمياً من كل العقود التي وقّعتها في حياتي بدءاً من عقود الزواج والطلاق وانتهاء بعقود العمل. ولم تكن علاقتي بالبطولة بأفضل من علاقتي بالذكاء، فبالإضافة لغبائي كنت جباناً أمام كل ما له علاقة بالتكنولوجيا بدءاً بالكهرباء والغاز وانتهاء بالسيارات والطائرات. وقد احتجت إلى أكثر من نوع من المهدئات قبل أن تطأ قدمي الدرجة الأولى من درجات الطيارة بالإضافة لابتلاعي لكافة أنواع الكحول الموجودة في الطائرة لا حباً به بل خوفاً من هذا الارتفاع الهائل الذي أنا فيه. كما أنني أبقى متيقظاً في الباصات وأراقب الطريق مع السائق دائماً وأطلب منه أن

يخفف السرعة، بينما لا يمل أحمد بيزكِه من الحديث عن بطولتي وذكائي في ذلك اليوم المشهود.

ما إن صعدت في السيارة التي ستمضي إلى الدرباسية من القامشلي حتى قلت للسائق: «على مهلك»، فابتسم قائلاً: «لم أجد بطلاً متواضعاً مثلك، بالمناسبة كل الأبطال لا يحبون الاستعراض مثلك». لذلك اضطررت إلى تحمل كل تشفيطاته على الطريق المحفّرة وتلذذه باستعراض السرعة أمامي ولِمَ لا فأنا «البطل». حتى وصلت إلى الدرباسية شبه ميت من الرعب خاصة وأن السائق طلب مني أن أرمي نفسي من السيارة وهي بسرعة مائة وعشرين كي يتأكد الركاب الذين معه من أنني البطل بشحمه ولحمه.

لم أسترح من تعب السفر حتى أمسك بي أحمد بيزكه وهو وسط حشد من الجماهير المستمعة وهو يصرخ بانفعال: «هذا هو البطل الذي كنتُ أحدثكم عنه». وكانت سرعة القطار الذي رميتُ نفسي منه قد تجاوزت المائتي كيلومتر في تلك اللحظة.

وبقيت في الدرباسية لعشرة أيام استخدمني فيها أحمد بيزكه كوسيلة إيضاح، واستثمرني كأفضل ما يمكن لمستثمر أن يستثمر. كان يمسكني من ياقة قميصي، ويرفعني عن الأرض نصف متر كي يرى الجمهور قامة البطل وهو يردد: «هذا هو البطل العبقري».

لم أعد أطيق الذهاب إلى الدرباسية، فإذا كنت راكباً على دراجة هوائية كان المارة يطلبون مني أن أرمي نفسي، وإذا صعدتُ عربة يجرها حمار كان الحوذي يلسع الحمار بالسوط كي يسرع ثم يلتفت إليَّ قائلاً: «هيا إرمِ نفسك أيها البطل». أما إذا كنت راكباً

في سيارة، فإن الركاب يصرخون بالسائق أن يسرع ويطلبون مني أن أحدد أية سرعة أحب أن أرمي نفسي، هذا بالإضافة إلى أنني كنت مطالباً بتفسيرات وشروحات عن محطة جبرين التي بات اسمها على كل لسان، وأصبحتْ أشهر من حلب ودمشق بل وحتى من نيويورك نفسها.

ومع مرور الزمن، كان رُهابي من السيارات والقطارات والطائرات يزداد، حتى إنني وصلتُ إلى الدرباسية ذات يوم شاحباً بسبب عدم استطاعتي النوم في القطار خوفاً، وبسبب توتري على طريق القامشلي درباسية، ومصادفة وجدتُ ابن أحمد بيزكه يحكي لجمهرة من الناس عن «بطولاتي»، فاخترت طريق العودة إلى حلب بقلب مرتجف وروح خائفة من حماقات السائقين.

الـمُريدان

لم يكن لديَّ ما أفعله في حلب سوى الجلوس في بيتي، وهو عبارة عن شقة في الطابق الأرضي اشتراها أبي كي أكون قربهم، وكانت الأطعمة تصلني من الطابق الأول حيث يقطن أهلي، وفي ذروة الملل والضجر طرق بابي شابان معجبان بشعري وبشخصيتي، أحدهما يدعى عناد، وهو شاب أسمر متوسط الطول ذو بنية قوية، والثاني يدعى عبودة، وهو بطول عناد، ولكنه مهلهل الجسم. كان عناد يحب أن يكون ممثلاً بينما كان عبودة يحب الشعر، وكانا متفقين على أشياء كثيرة بصمت، فالقهوة يصنعها عناد بينما يتخصص عبودة بصنع الشاي، والفشل في الدراسة أمر مشترك بينهما، فالاثنان لم يتابعا الدراسة، ولكنهما يعملان. عبودة دهان محترم بينما عناد يعمل مع شقيقه كشريك في محل للألبسة ساهم عناد بجدارة في إفلاسه.

كنت مثَلُهما الأعلى في كل شيء، وقد أصبحا مقيمين ببيتي ومسؤولين بشكل مباشر عن حياتي.

صباحاً تأتيني القهوة إلى سريري، فأشربها مع عناد، وما إن ننتهي من ذلك حتى يكون عبودة قد جاء بالفول والحمص. وكانا لا يتحرجان من خدمتي أمام الضيوف، فإذا طلب الضيف القهوة يكون عناد قد جاء بها بلمح البصر، وإذا طلب الشاي يكون عبودة جاهزاً.

في البداية كانا صامتين في أثناء وجود الضيوف، ولكنهما شيئاً فشيئاً أصبحا متحدثين بل وبدآ يدخلان في نقاشات مع أصدقائي الأدباء بشكل محرج بالنسبة إليَّ، فهما لا يفقهان شيئاً عن المواضيع التي نتحدث بها عادة، ولا علاقة لهما بالثقافة أصلاً إلّا إذا اعتبرنا قصائدي ومقالاتي التي قرؤوها ثقافة. ولكن الإحراج بدأ يكبر عندما وضعا نفسيهما في موقع المدافعين عن وجهات نظري في أي موضوع نتحدث به، فكانت الشتائم تنهال على الكاتب الذي يعارضني في أية فكرة، والغريب أن أصدقائي الأدباء كانوا يتقبلون ذلك من هذين الأميين.

كانا يعتبرانني أهم شاعر في العالم وأهم صحافي في العالم. وكانت الكلمة التي أقولها تدوّن على أوراقهما فوراً كأقوال مأثورة، والمقالة التي تنشر لي تعتبر حدثاً عظيماً. وكان كل الكتّاب الذين يزورونني أعداء لي حتى يثبتوا العكس، لذلك كانا يضطهدان ضيوفي دون أن يعيرا انتباهاً لملاحظاتي الدائمة لهما بالتزام التهذيب مع الضيوف. وكانا يستسخفان كل الأسماء التي ترد في حواراتهما مع ضيوفي، فمحمود درويش لا مجال لمقارنته

بي، وأدونيس اتصل البارحة ثلاث مرات من فرنسا كي يطمئن على كتاباتي.. إلخ.

كنت أصاب بخجل مريع عندما كانا يسكتانني كلما حاولت التدخل، والغريب أن الأدباء كانوا يصدقونهما. وهكذا أصبح محمود درويش يسرق من قصائدي، وأدونيس يتمنى أن يحادثني تلفونياً، ورياض الريّس يلحّ عليَّ لكي أنشر ولو مقالة بسيطة في مجلته اللندنية «الناقد». حتى إن عبودة تجرأ ومسح الأرض بالمتنبي مستنداً إلى قصيدة يقول المتنبي في مطلعها الذي أصبح موضة عند الشعراء: «على قلق كأن الريح تحتي»، وكان عبودة قد حصل على معلومة خطيرة تفّه بها هذا المقطع، واستطاع إقناع عتاولة الثقافة بوجهة نظره التي تقول إن حصان المتنبي كان يدعى «قلق»، وهذا يعني تحطيم المجاز في القصيدة وتحويلها إلى قصيدة في مدح الحصان لا أكثر ولا أقل.

ولكي لا يفارقاني طويلاً بدآ بممارسة عمليهما في بيتي، وصار طبيعياً أن أستيقظ صباحاً لأجد عبودة يلقي محاضرة بذيئة على عمال ورشته، فهذا لم «يحفّ» الباب جيداً، وذاك لم يمعجن الجدار كما يجب. أما عناد، فكنت أستمع إلى مساوماته مع مهرّبي الألبسة وأنا على سريري. في البداية لم أكن أجرؤ على الخروج من غرفتي، ولكن الفضول قادني إلى الصالون لأجد عمّال ورشة الدهان بملابسهم الملطّخة ينهضون لتحيتي وهم يبدون إعجابهم بمقالاتي وقصائدي وسط ابتسامة فخر واعتزاز من قبل معلمهم عبودة. ومرة أخرى رحّب أحد المهربين بي وهو يتلو مقطعاً من شعري.

بعد فترة، بدأ المريدان يغيبان طويلاً عن البيت لأكتشف أنهما أصبحا يجالسان أدباء المدينة في مقهى القصر، بل ويسكران مع كبار الأدباء في النادي العمالي، وبدأ الأدباء بطلبهما على تلفوني الشخصي، فأصبحت فجأة عامل سنترال عندهما، بل إن عبودة كان يغمزني لأقول لأديب كبير إن عبودة غير موجود، وكذلك كان يفعل عناد مع المسرحيين الكبار. ولكن ولاءهما لي ظل كما هو، وبقيت مَثَلهما الأعلى والسقف الذي لا يسمحان فيه لنفسيهما بتجاوزه.

كنت مشهوراً بمداخلاتي الساخرة واللاذعة سواء في الأمسيات الأدبية التي يتلوها حوار مفتوح، أو في مهرجانات المسرح التي يُفتح فيها الحوار بعد كل عرض، ولكني في تلك الفترة كنت مصراً على عدم الخروج من المنزل بسبب حالة طويلة من الكآبة لازمتني حتى مجيء المريدين إلى حياتي. وكان من الطبيعي أن أخرج من المنزل لحضور أمسية أدبية لعدة شعراء متوسطي الموهبة رضوخاً لأوامر المُريدَين، وفي أثناء الأمسية كان عبودة يبصق على الأرض ويقول: «تافه»، وعناد يتنحنح بصوت عالٍ عند كل مقطع لا يعجبه. كنت خجلاً منهما خاصة عندما كان الحاضرون ينظرون إليهما باستغراب واستهجان. وما أن بدأ الحوار حتى كان عبودة أول الصاعدين إلى المنبر، واستطاع بلمح البصر أن يجذب الحاضرين إليه بعد أن اعتبر كل ما قيل من شعر هو شعر تافه مفبرك، ثم أشار إليَّ لأصعد وأقول رأيي، فصعدتُ مرغماً لأن عناد كان قد جرّني ودفعني إلى الأمام.

وقبل الصعود إلى المنبر التصق بي عبودة وهمس لي أن أمسح الأرض بجميع الشعراء الذين قرأوا شعرهم، ففعلتُ ما طُلب مني

بطريقتي الساخرة وسط تصفيق عبودة وعناد، فما كان من الصالة إلّا أن صفّقت بسبب العدوى.

وبعد أيام، أخذاني إلى مهرجان للمسرح. وفي أثناء العرض المسرحي كان عبودة يصرخ معلقاً شتى أنواع التعليقات لأن العتمة كانت تلف الصالة، فكان يقول للممثل: «مو هيك يا جحش» وينادي الآخر: «خود إضاءتك يا تيس»، وسط ضحكات الجمهور الذي بدأ يشارك بالتعليق البذيء حتى انقلب العرض إلى فوضى متكاملة، وتحول الممثلون أشباحاً خائفة وخجلة من نفسها. وعندما بدأ الحوار كان عناد وعبودة قد رفعا لي يدي، فرحّب بي مدير الندوة، واضطررتُ إلى الصعود بعد توصيات عبودة وعناد بأن أمسّح الأرض بالعرض. وبالفعل قمتُ بالواجب، وكان الجمهور يصفق لي على أثر تصفيق عبودة وعناد بعد كل جملة كنت أقولها.

وفي اليوم التالي، سمعت عبودة يتحدث على التلفون مع مخرج مسرحي ويطمئنه بأن «الأستاذ» ــ أي أنا ــ سيمتدحه في ندوة اليوم. وعندما اعترضت على طلبه استطاع إقناعي بأن هذا المخرج مسكين ومحارب وأن كلمتي بعد عرضه ستساعده على تجاوز محنه جميعاً، خاصة وأن زوجته مصابة بالسرطان وسوف تموت قريباً، فما المشكلة إذا أفرحناها قليلاً قبل ذلك. وفي أثناء العرض كان عبودة وعناد يطلقان صرخات الإعجاب عند كل مشهد من قبيل «يا سلام» «الله أكبر»، ولما بدأ الحوار رفعا لي يدي بعد أن أشارا إلى امرأة شاحبة جالسة بالقرب منا: «شوفها.. هي زوجته للمخرج.. يا حرام».

نهضتُ مكتئباً من رداءة العرض ومن شكل الزوجة التي ستموت

قريباً، وامتدحتُ العرض بشكل لا مثيل له وأنا أسترق النظرات إلى وجه الزوجة الشاحب.

مساءً كان عبودة وعناد قد تركاني وحدي بعد أن سمعت عبودة يحدد موعداً مع المخرج المسرحي نفسه في النادي العمالي ليسكروا مع الفرقة بمناسبة نجاح العرض. وكان عبودة يصرّ على المخرج ألّا ينسى بأن يجلسوا في جناح العائلات، وهذا يعني أن فتيات الفرقة وزوجة المخرج موجودات في السهرة. ولم تنقضِ ساعتان حتى كان عبودة وعناد قد عادا بصحبة فتاتين من فتيات الفرقة، جلست معهم وشربنا النبيذ، وكان في بالي أن أطبّق واحدة لنفسي، ولكن عبودة طلب مني أن أنهض إلى غرفتي كي أنام لأن عندي لقاء هاماً جداً مع المخرج جواد الأسدي في الصباح، وما إن سمعت الفتاتان باسم جواد الأسدي حتى طلبتا مني أن أعرّفهما به، فوعدهما عبودة بذلك بينما كان عناد يجرني إلى غرفتي.

لم أستطع النوم بالطبع وأنا أسمع حفيف القبل والتنهدات من الصالون، وأتخيّل كيف يعانق كل منهما فتاته في حين كانت صورة جواد الأسدي وموعده الكاذب ومسرحياته تملأ فضاء غرفتي.

في الصباح، شربنا القهوة مع الفتاتين اللتين تنتظران قدوم جواد الأسدي وعلى جسديهما بعض العلامات من ليلة البارحة. خرج عناد من المنزل، ورنّ التليفون بعد ثلاث دقائق من خروجه، رفع عبودة السماعة وبدأ يتحدث: «أهلين جواد.. لا والله الأستاذ مو فاضي اليوم.. راسه عم يوجعه.. بكره إنشا الله.. على تليفون.. أهلين جواد». أصيبت الفتاتان بخيبة أمل بينما نظر إليَّ عبودة وقال:

«اطمّن.. قردفت لك إياه». وبعد ثلاث دقائق، كان عناد يدخل ضاحكاً. حاولت مراراً أن أحصل على علاقة مع فتاة من الفتيات الكثر اللواتي يحضرن إلى بيتي دون جدوى، فقد كان عناد يقول لي: «أنت أستاذ كبير. هدول مو من مستواك.. خليهم يشتهوك بس»، وكنت أقتنع بأستذتي بينما كانا يغوصان في بحر من الملذات.

بعد شهر سمعت من الناس أن هناك عرضاً مسرحياً من إخراج عبودة، فمضيتُ إلى حضوره، وكان عناد هو بطل المسرحية. أما باقي الممثلين، فقد تعرفتُ إلى الفتيات منهن إذ حضرن إلى بيتي مراراً، بينما ظللتُ أشك في معرفتي بالممثلين الذكور حتى تذكرت أنهم عمال ورشة الدهان أنفسهم. وكان الدهان/ الممثل منهم إذا التقت نظراته بنظراتي في أثناء أداء دوره يقول لي: «أهلين أستاذ»، ويتابع مونولوغه، وبعد انتهاء العرض، جلس عبودة وعناد وفتاتان ممثلتان إلى المنصة كي يبدأ الحوار.. نظر إليَّ عبودة، وقال: «تفضل أستاذ.. الميكروفون معك».

وجدت نفسي خلف الميكروفون، وكانت نظرات عبودة وعناد تتضرع إلى كي أمتدح عرضهما البائس والتافه، وفعلت ذلك، فشكراني بنظرات ممتنّة. وكرّت السبحة بعد ذلك العرض ليقدما أكثر من عشرة عروض مسرحية في ظرف ثلاثة أشهر. وكانا يصوران هذه العروض بثلاث كاميرات فيديو يقوم بعد ذلك أحد أصحاب محلات الفيديو بعمليات المونتاج، ووضع إشارة لكل مسرحية تبدأ بـ عناد محمود في.. «هاملت».. تأليف شكسبير.. إخراج عبودة عبد الله.. أو عناد محمود في البرجوازي النبيل تأليف موليير.. إخراج عبودة عبد الله. وكان كل عرض من هذه العروض

يعرض ليومين أو ثلاثة أيام لا أكثر بتمويل من المنظمات الشعبية التي ترعى الهواة على الدوام.

بقيتُ ممنوعاً من الخروج حتى بعد زوال كآبتي لأن المريدين كانا يرددان دائماً: «لا تكن شخصاً عاماً.. دع الناس تحلم بمشاهدتك». وكانا يخدمانني كالسابق رغم انشغالهما بالمسرح.

وفي إحدى السهرات الصاخبة، سكر أحد المدعوين، وبدأ بامتداحي وإبداء إعجابه بي لكثرة ما سمع عني على لسانيْ عبودة وعناد، وكان واضحاً أنه يريد أن يكون مريداً جديداً لي بمباركة من عبودة وعناد خاصة أن عبودة قد صرّح بأن هذا المريد الجديد سيقيم «معنا» بالمنزل، إلّا أن المريد الجديد لم يكن على مستوى المسؤولية، فقد اقترب من إحدى الفتيات، وبدأ بمعانقتها فوراً وهو يقرأ مقطعاً رومنسياً من شعري.. فما كان من عبودة إلّا أن جرّه من شعره إلى الخارج من دون أن يكترث لحالة الإقياء التي انتابت المريد الجديد. خرج عناد خلف عبودة الذي سحب المريد الجديد إلى الشارع، فخرجت خلفهما تاركاً الفتيات يمسحن السجادة من مخلفات الإقياء.

كان المريد راكعاً على قدمي عبودة وهو يبكي: «أرجوك دعني أدخل وأقدم اعتذاري»، بينما كان عبودة يرفسه دون رحمة على وجهه: «اخرس وانقلع». أما عناد، فكان يمسك المريد الجديد ويصفعه بعنف ويبصق في وجهه وهو يقول له: «أنت بدك تضل حمار.. انقلع»، تدخلت حاسماً وأنا أرمق المُريدَين بغضب، فأفلتا المريد الجديد، وأمراه بالعودة إلى المنزل.. أي منزلي.

في اليوم التالي، كان المريد الجديد يقوم بالأعباء المنزلية كلها بينما كان المريدان يضعان قصائدي أمامهما ويكتبان أشياء غامضة على الدفاتر إلى أن سمعت أنهما يطبعان كتاباً شعرياً من تأليف عبودة عبد الله وهو بعنوان «النخيل يذرف التمر». وبعد شهرين كان عناد يتأبط شرائط الفيديو التي تضم التسجيلات الكاملة لأعماله المسرحية، وكذلك كان يفعل عبودة بنسخ أخرى من ذات الشرائط مضيفاً إليها كتابه الشعري والمقالات التي كتبت عنه في الجرائد بأقلام كتّاب لم أسمع بهم في حياتي، ويقومان بوداعي. تعانقنا وبكينا من شدة التأثر.. وسافرا، عناد إلى إيطاليا، وعبودة إلى ألمانيا، بعد أن أوصيا المريد الجديد بأن يأخذ باله مني ويقوم على خدمتي كما كانا يفعلان وأفضل.

بقي المريد الجديد عندي على الرغم من الحماقات الكثيرة التي ارتكبها، فقد ضرب أحد النقّاد لأنه وجّه ملاحظة إلى شعري في المقهى. كما أنه ذهب سكراناً بصحبة أحدهم إلى منزل إحدى صديقاتي، وكانت تسكن مع صديقة لها، وطرق الباب عليها وهو يترنح ويقول بالفصحى: «نريد نساء». كما قام بالتهجم على أبي في مكتبه لأنه لا يقدّر مكانتي الشعرية. وفي إحدى أمسياتي الشعرية أحضر مائتي شخص من جمهور فريقي الاتحاد والحرية إلى القاعة كي يملأها.

وفي اتصال هاتفي من عبودة علمت أنه حصل على الإقامة بألمانيا تقديراً لشعره ومسرحه المضطهدين والمحاربين في بلادنا. وكذلك الأمر بالنسبة إلى عناد الذي حصل على الإقامة بإيطاليا. وكان المريد الجديد يتحرق شوقاً للسفر إلى ألمانيا أو إيطاليا بعد أن أوصاه عبودة بأن ينجز عدة أمور لم يشأ المريد الجديد أن يصرّح لي بها.

عدت إلى دمشق تاركاً المريد الجديد وحيداً وحزيناً في حلب كما قال لي وهو يودّعني. وبعد شهرين من إقامتي في دمشق، قرأت له قصيدة في جريدة «السفير» ملطوشة بكاملها من قصائدي. وبعد خمسة أشهر، قرأت قصيدة له ملطوشة أيضاً من شعري وقد ذيّلها باسمه وبجانب الاسم قرأت كلمة.. «أمستردام».

سهرة أدبية في اللاتيرنا

دخل أبو سعاد العراقي وهو شاعر بالضرورة إلى مطعم اللاتيرنا ولكن بصحبة امرأة هذه المرة، ولم يلتفت أبو سعاد لا يميناً ولا شمالاً حتى لا يضطر إلى الجلوس مع أحد بصحبة صيده النادر. إلّا أن التفاتة لا إرادية بدرت منه إلى الطرف الأيمن سببت وقوف عشرين شاعراً من مختلف الجنسيات الشرق أوسطية احتراماً لأبي سعاد و«ضيوفه»، وبادر الشعراء إلى الترحيب بصديقهم بحرارة لا متناهية، بل إن بعضهم هرع إليه وقبله ثم عانقه على الرغم من أنه كان يتمنى عدم حضوره قبل دقائق، وجلس أبو سعاد رغماً عنه بعد أن أجلس صديقته، وبلمح البصر كان «لورانس» قد أحضر كأسين فارغتين وصب بنفسه النبيذ الأبيض وقال: «أهلاً وسهلاً مدموزيل»، وانسحب ضاحكاً بعد أن رأى الجميع سنه الذهبية تلمع في فمه.

اتخذ أبو سعاد وضعية قائد الجلسة ورفع كأسه: «أصدقائي الأدباء جلستنا هذه... أدبية... ومعنا أختكم الآنسة ختام وهي شاعرة من القطر العربي السوري من الساحل الجميل»، وقبل أن يتم جملته ارتطمت الكؤوس ببعضها البعض، وأحسّ أبو سعاد بانتصار جزئي كونه أكّد أن الآنسة ختام هي «أختهم» مستثنياً نفسه من هذه الأخوة، ومع ذلك فقد تسابق الجالسون إلى الترحيب بأختهم الآنسة ختام التي انتشت، فأفرغت كأس النبيذ كاملاً في جوفها، وسرعان ما امتلأ الكأس من جديد، فافتر ثغر الآنسة ختام عن أسنان صفراء، وفجأة ودون سابق إنذار افتتح أحد الشعراء من الأشقاء السوريين الجلسة الأدبية قائلاً: إن السياب كأحد الشعراء الرومانسيين.

فانقض أبو سعاد عليه بشراسة وقال: «ما أسمح لك.. ما أسمح لك تتناول أسطورة الشعر العربي بهذه الطريقة، معقولة تقول عنه رومانسي... شنو هوة.. خَوَل؟!!!».

وتبع الجميع أبا سعاد، وانهالوا بالشتائم على رأس السوري الشقيق بمن فيهم أشقاؤه السوريون، أما الفلسطينيون الجالسون على الطاولة، فلم يحركوا ساكناً لأن الموضوع لا يمس محمود درويش لا من قريب ولا من بعيد.

وبعد انهيار الشاعر السوري الشقيق انتشى أبو سعاد مما استدعى الجالسين أن يطلبوا منه قراءة قصيدة من تأليفه. ارتشف أبو سعاد قليلاً من النبيذ وتأمل الحاضرين ثم جاد: «لنخلة شاردة في غياهب السماء...»، وتعالت الأصوات، وارتطمت الكؤوس ببعضها البعض، وأجهش أحد العراقيين بالبكاء، وتحدث بشكل مبهم عن النخيل

والرمز الذي تحمله هذه الكلمة وهو يسترق النظر إلى الآنسة ختام، ثم أكمل أبو سعاد منتشياً:

«لنخلة شاردة في غياهب السماء/
لدماء دجلة وهي تتدفق عالياً...».

هنا أجهش الجميع بالبكاء بمن فيهم السوريون لأن دجلة يمر بالأراضي السورية أيضاً، أما الفلسطينيون، فلم تهتز شعرة في رؤوسهم لأن دجلة لا يصب في البحر الميت، ثم أكمل أبو سعاد واقفاً وبحماسة منقطعة النظير:

«لدماء دجلة وهي تتدفق عالياً/
تجش الحقيقة في صدري/
وأجهش..»/

وهنا أجهش الجميع بالبكاء بمن فيهم عمّال المطعم الواقفون بعيداً، وتابع أبو سعاد:

«وأجهش../
لا مكان للجواسيس بيننا...».

تبادل الجميع نظرات الشك والريبة، تخيّل كل منهم أن الآخر جاسوس يكتب فيه التقارير ليلاً ونهاراً، ولكن صوتاً مرتجفاً ظهر: «سنشرب حتى الثمالة يا أصدقاء على شرف هذه القصيدة العظيمة»، فانبرى أبو سعاد للموضوع مباشرة وصرخ: «لورانس...

هات ثلاث زجاجات نبيذ أبيض... وسجّلها على البخاري...»، والبخاري... محمد... موريتاني يعيش في دمشق منذ أكثر من عشرين عاماً، وهو يحاول قدر الإمكان عدم استفزاز أحد، لهول ما يشعر به من رعب العودة إلى نواكشوط، وهو ــ أي محمد البخاري ــ يتواجد في كل الأماكن العامة والخاصة إلى درجة أنه كان جالساً معنا ذات يوم في اللاتيرنا ونهض الحلاج إلى التليفون وخابر كافيتريا الشام طالباً محمد البخاري، فردّ عليه البخاري من هناك.

ودخل الحلاج وناصر نعساني، وجلسا معي بالقرب من طاولة السهرة الأدبية. وسرعان ما انضم البخاري إلينا وهو يدخل مترنحاً من الخوف وليس من السكر، وبدأنا بممارسة هواية شرب البيرة، وكان الحلاج يحدثني عن مغامرته في اليابان.

نظر أبو سعاد إلى طاولتنا، ورفع لنا كأسه ثم التفت إلى جلسائه، وطالبهم بالاستماع إلى قصيدة من تأليف الآنسة ختام وإلقائها، فساد صمت رهيب.

بدأت الآنسة ختام بالقراءة:

«أيها الجسد المتعمشق/

على حورة اللانهاية/

تعملق/

تجنس/

تناسل...»

ارتطمت الكؤوس ببعضها البعض، وطارت مفردات في الهواء واختلط بعضها ببعض مثل «جميل... جرأة ضخمة... شعر حقيقي... تفجير لغوي هائل.. تجديد.. استخدام رائع للغة... إحساس فريد بالجسد... إلخ...».

كادت الآنسة ختام أن تبكي لهذا النجاح الباهر، وتابعت:

«تعملق... تجنس... تناسل/
أيها الجسد المتساقط/
على هذيانات الروح/
اضمر... واختبىء/
في ركام اللغة اللازوردية/
وفي ثنايا ... الكلام»

وعلى الفور نهض الجميع وبحركة مسرحية موحّدة رفعوا نخب الآنسة ختام: «ثورة على الجنس.. تحرر من التقاليد المجتمع... تمرد على عبودية الجسد... إلخ»، وعندما سألوها أين كانت مختفية فيما مضى هي وشعرها، بدأت الآنسة ختام بالحديث عن زوجها الظالم والتافه الذي كان يمنعها من كتابة الشعر ويحاصر أفكارها، فطلّقته من أجل التفرغ للكتابة. وعندما عرف الجميع بأنها مطلّقة وأن الآنسة ختام ليست بآنسة فعلاً دخل السرور إلى قلوبهم، وأصبحت محاولاتهم في التودد إليها أقوى وأكثر على الرغم من أن أبا سعاد كان قد حرّمها عليهم جميعاً عندما اعتبرها «أختهم» وحلّلها لنفسه فقط.

وبطريقة عاصفة.. دخل الشاعر العراقي فايز العراقي وعرّف عن

نفسه للآنسة ختام، ووضع كيساً أسود على الطاولة وجلس، ثم بدأ يعدد دواوينه للآنسة ختام بما فيها التي لم تصدر بعد على اعتبار أن أجمل القصائد هي التي لم نكتبها بعد كما يقول ناظم حكمت. وفايز العراقي اسم مستعار كي لا يناله زبانية صدام حسين من الشاعر. وقد طبع ديوانه الأول بهذا الاسم المستعار، ووضع صورته على الغلاف الأول.

أخرج فايز العراقي ديوانه الجديد الذي خرج من المطبعة للتو وهو بعنوان «كريفونة الغياب»، وبدأ يقرأ منه بعض المختارات بشكل وقور، ثم بدأ يشرح للجالسين عن الكريفون: «الكريفون فاكهة جميلة تنبت على الساحل السوري الجميل وهي تنتمي إلى حزب الحمضيات وهي مُرّة وحامضة وحلوة في آن معاً ولها دور فعّال في القضاء على أذناب وزرابية الكريب والأنفلونزا»، وبعد أن انتهى من الشرح سحب الكيس الأسود، وأشار إلى فاكهة ضخمة هرت من تحته: «هذه هي كريفونة الغياب».

لم يكمل جملته تماماً عندما دخل عنايت عطارد، وجلس معنا، ولكن عنايت عطارد نهض، وقال للجالسين مشيراً إلى الفاكهة التي على الطاولة: «هذه ليست كريفونة».

فامتقع وجه فايز العراقي صاحب ديوان «كريفونة الغياب»، وقال: «ماذا تقصد؟». ضحك عنايت عطارد وقال له: «لا شيء.. فقط أحببت أن أبارك لك بصدور ديوانك «كريفونة الغياب» أولاً»، فنظر إليه فايز العراقي غاضباً وقال: «وثانياً؟!».

أجاب عنايت عطارد: «ثانياً، هذه الفاكهة التي على الطاولة ليست

«كريفوناً». هذه... بوملي».

بينما كان بقية الشعراء الشرق أوسطيين قد غرقوا في حالة سكر رومانسي على إيقاع قصائد الآنسة ختام التي طلّقت زوجها الحقير كي تتفرغ للأدب، حاول أبو سعاد أن يقرأ قصيدة جديدة بعد نجاح قصيدته الأولى، لكن الجالسين امتعضوا من الفكرة، وأصرّوا على أن تبقى الآنسة ختام وحدها شاعرة هذه السهرة على الرغم من كونها جاءت أصلاً مع أبي سعاد. تابع الجالسون تعليقاتهم المدائحية لكل قصيدة من قصائد الآنسة ختام، وتباروا في ابتكار المصطلحات ما بعد الحداثوية في توصيف قصائدها، وكان كل من يتحدث عن قصائدها ينظر إليها نظرات ثاقبة علّها تقع في غرامه، وتمضي من ثم معه إلى «مأواه». وهكذا فقد تحدث أحد الشعراء السوريين عن التحرر الجنسي في قصائدها، وتساءل عما إذا كانت صادقة أم أنه مجرد تأليف. ولم ينتظرها حتى تجيب، بل أجاب لنفسه معتبراً قصائدها صادقة وتحررها الجنسي في القصيدة يعبّر عن أفكارها وممارساتها في الحياة، وقال في نفسه: إنها حتماً ستذهب معه رغماً عن أنف الجميع. أما الشاعر الفلسطيني، فقد ربط بين قصيدتها والقضية الفلسطينية وكيف أنها تحولت من الخاص إلى العام بسهولة لا متناهية وبطريقة رمزية شفافة، ولم ينسَ أن ينال من «أبي سعاد» ومحاولاته في الوصاية عليها على الرغم من كونها هاربة من وصاية الزوج السابق الحقير، وبعد ذلك نظر إلى الآنسة ختام، وحيّا فيها روح الحرية المتوثبة في أعماقها ثم حدّث نفسه بأن الآنسة ختام ستمضي معه إلى مخيم اليرموك في نهاية السهرة حتماً.

وما إن انتهى من مداخلته حتى أثنى عليها الشاعر اللبناني الذي سيعود إلى بيروت بعد يومين، وقال: «برافو.. مش هي ختام تركت

زوجها منشان تخلص من سماه وتصير حرّة؟!. طيّب ليش يا أبو سعاد عم تعمل وصي عليها؟! حلّ عنها يا خيّي.. اتركها تعيش لحالها بدون وصاية. يا خيّي أنتو السوريين كتير بتحبو الوصاية.. خلو العالم بحالها». هنا انقضّ عليه أبو سعاد قائلاً: «آني عراقي.. مين قلك إنّي سوري؟!». ردّ الشاعر اللبناني بهدوء: «مش مهم يا خيي.. المهم إنو شعرها كتير مودرن وبالتالي حياتها كمان مودرن.. مش هيك يا خيي أبو سعاد!». ثم صمت وهو يفكر في أعماقه أن الآنسة ختام ستمضي معه آخر السهرة إلى بيت عمه في باب توما غصباً عن اللي خلّف أبو سعاد.

وعندما لاحظ فايز العراقي أن الأجواء متوترة حمل كتبه وأوراقه ومضى إلى طاولة أخرى بعيدة، وقال لنا وهو يمرّ بجانبنا إن الجو مكهرب ولا علاقة له بالأدب على الإطلاق. وبالطبع لم نسأله شيئاً.

وقبل أن يستفيق أبو سعاد من صدمة الخيانات المتتالية، تدخل شاعر سوري، وحلّل قصائد الآنسة ختام بنيوياً، ثم حلّلها نفسياً، وخَلُص إلى أن عدم ارتوائها من الحب هو وراء الكآبة في قصائدها، وأنها الآن بحاجة إلى الحب كما تشي قصائدها الجريئة بذلك. وعقب بأن الرجل الذي تبحث عنه «ختام» ـ متحرراً من الألقاب للمرة الأولى ـ ليس رجلاً عادياً. ولم ينسَ الشاعر السوري أن يفهمها في أثناء الحديث أنه يجلس في اللاتيرنا ظهراً ومساءً، وأنه يعيش وحيداً وحزيناً في منزل ذي إطلالة رائعة، وفكر بعد ذلك في أنها حتماً ستطلب منه المبيت عنده.

أشار أبو سعاد إلى لورانس أن يأتيه بزجاجتي نبيذ، وغمزه بعينه كي

يسجلهما على الدفتر.

جاء النادل موسى بزجاجتين، وفتحهما ثم صبّ للآنسة ختام كأساً وقال: «أهلين بالأستاذة، شَعرك حلو كتير». ابتسمت الآنسة ختام، ورشفت رشفة من كأسها، وبدأت بقراءة قصيدة بعد أن استرقتْ نظرة وابتسامة إلى موسى:

«أخذتني أحزاني
إلى ما وراء اللغة
قذفتني الأعضاء
كنطفة وحيدة
تدور عمياء
في رحم الغياب..»

يا سلام.. ممتاز.. رائع.. قلق وجودي.. ضياع كائن.. إلخ. هتافات وكلمات من هنا وهناك حتى كادت الآنسة ختام أن تنفجر زهواً واعتزازاً.

نظر أبو سعاد إلى الآنسة ختام مبتسماً وفي عينيه حرمان أبدي، وطرق كأسه بكأسها وقال ملتفتاً إلى الآخرين: بصحة هذا الخراب الجميل، فرفع الآخرون الكؤوس، ووقف بعضهم الآخر، وفي هذه اللحظة مدّ أبو سعاد يده، ووضعها خلف ظهر الآنسة ختام من دون أن يلمسها إلّا بمصادفات متعمدة.

قال شاعر: أنتِ جريئة في شِعرك، فهل أنتِ كذلك في الحياة؟

ضحكت الآنسة ختام، وخفضت رأسها قليلاً دلالة الاستحياء، فقال الشاعر اللبناني: لَهْ شو مستحية يا ختام.. بحياتي ما شفت شاعر مستحي؟! أنتو السوريين شعب خجول.

ردّ عليه شاعر من طاولة أخرى يبدو أنه كان يستمع إلى الحديث: بلا تنظير على الشعوب يا أخي.

ردّ عليه الشاعر اللبناني بحنق: عم تتجسس على حديثنا يا أخ؟!

هنا انقض أبو سعاد عليه: تقول عن صديقي جاسوس.. ما أسمح لك.

هدّأت الآنسة ختام من روع أبي سعاد، ولكن شاعراً آخر تدخل، وبدأت الكلمات تتطاير من هنا وهناك إلى أن بدأت المعركة بصوت زجاجة انكسرت في الحال، فقلب أحدهم الطاولة مباشرة على اعتبار أنه لم يتحدث قط في هذه السهرة الأدبية. وجاء الجاسوس المفترض لحماية أبي سعاد، وتعالت القبضات وسط تدخل الناقمين بينما كنا نشرب البيرة بهدوء ونحن نستمع إلى إحدى مغامرات الفنان الحلاج في اليابان، صرخت الآنسة ختام وسمعناها تقول: «أوقفوا هذا الخراب الجميل». ثم اختفى صوتها وسط الأصوات المنددة، وارتفع عدد المتعاركين كما ازدادت مساحة أرض المعركة. تطايرت الكراسي في الهواء وصحون السجائر والملاعق بينما لم يمد أحد يديه إلى السكاكين، فكان المحارب يمد يده ليرمي شيئاً، فيجد سكيناً، عندئذٍ يتركها ويأخذ ملعقة.. وهكذا.

وقف لورانس وسط المتعاركين وقال: جاءت الشرطة. فجلس الجميع

كل في مكانه. ثياب الجميع ممزقة. وشعورهم مشعثة. طلب لورانس من عمّاله أن ينظفوا المكان بسرعة ثم رمى الفاتورة على الطاولة، ولكن أحداً لم يتصدَّ للحساب. تبادل الجميع النظرات، ولاحظوا غياب الآنسة ختام، ولكنهم فكروا جميعاً في وقت واحد أنها بلا شك في الحمام.

وانتظروا، وانتظر لورانس أيضاً ريثما يحاسبه أحدهم.

أوقف النادل موسى سيارة أجرة، والتفت إلى الآنسة ختام، تفضلي، صعدت ختام، وصعد النادل موسى بجانبها، وقال للسائق: على دف الشوك لو سمحت.

ما لم يكن لي أبداً

عندما كنتُ في الثالثة من عمري استجار شخص بنا ودخل إلى بيتنا هارباً من الثلج والظلام، وبعد أن تعشّى وتحمَّم نام في غرفة الضيوف الكبيرة، وفي الصباح استيقظت وتوجهتُ إلى غرفة الضيوف وأنا أحمل سيارتي الصغيرة التي أحضرها لي عمي صلاح من دمشق. لعبتُ مع الضيف قليلاً، وكانت اللعبة الأجمل التي لاعبني إياها هي نزعه لقطع الذهب من عنقي وساعدي وملابسي، ولكنه للأسف مضى ولم يكمل اللعبة، فأعطيته سيارتي الصغيرة أيضاً وهو على الباب، فقبّلني وطلب مني السكوت وعدم الصراخ، فاستغربت لطلبه هذا، ثم استيقظ أهلي واكتشفوا ما حدث، ولكنهم لم يجدوا للضيف أثراً في الدرباسية كلها، تلك كانت بداية عهدي بأملاكي الضائعة والهاربة من أمامي ووجهي وضّاح وثغري باسم.

وفي القطار بين حلب والدرباسية كان الأطفال يتعاركون وكان آباؤهم يقدمون لهم أوراقاً وقد صنعوا منها أشكالاً مخروطية كجائزة بعد العراك، ودخل أبي اللعبة وأعطاني قمعاً ورقياً كباقي الأطفال بعد الخروج من معركتي الأولى، ولكنني رميته بعد لحظات، بل ودعستُ عليه وأنا أركض في الغرفة، وعندما عدتُ وجدتُ طفلاً آخر يحمل قمعي المدعوس ويحاول أن يسوّيه بحنان منعني من المطالبة به.

وبعد أن انتقلنا إلى حلب نهائياً، امتلكت لعبة lego فرنسية ظللتُ أركبها وأفتتها ليوم كامل ثم نسيتها متناثرة في أرض الغرفة لأيام حتى جمعتها أختي واحتفظت بها لنفسها، وظلّت تلعب بها خمس سنوات كاملة. وعلى الرغم من كوني وحيداً فإن أبي لم يشترِ لي دراجة لأن أمي كانت تخاف عليَّ، فصرتُ أستأجر الدراجات لساعات، ومن وقتها أدمنتُ الإيجار ومقتُّ الملك.

أحاول أن أتذكر، فلا أتذكر شيئاً من مقتنياتي سوى القليل القليل، فأنا لا أذكر أول مريول لبسته في المدرسة، ولا أول بدلة إعدادية أو ثانوية، حتى إنني لا أذكر من ملابسي سوى بنطالين، أحدهما خمري، والآخر أخضر لأنني أحرقتهما بيدي على سطح منزلنا بعد أن كافحت كي أرتديهما. كما أتذكر بنطالاً أسود اللون يتوسطه خط أبيض لأنه أول بنطال اشتريته بنفسي بعد أن أرغمتُ أمي على عدم الذهاب معي لأول مرة في حياتي إلى السوق، وبعد أن ارتديت البنطال/ الحلم الذي طالما اشتهيته رميته في سلّة الملابس المعدّة للغسيل ونسيته حتى شاهدته متجولاً في جسد ابن جيراننا.

نجحتُ في الصف التاسع بعد عامٍ من الصياعة وعدم الدراسة،

فانزعج أبي لأنه كان يتمنى رسوبي كي يضربني لسبب مقنع وكي يشمت بي وهو يقول لي جملة تربوية كان يتدرب عليها طوال ذلك العام «من زرع حصد». ولكن نجاحي خيّب له أمله فاضطر إلى أن يهديني آلة حاسبة، وكانت اختراعاً وقتها بمثابة الكمبيوتر الآن. بينما اشترى لي ابن عمتي بعض الكتب بناء على طلبي، وكان من ضمنها كتاب نيتشه «هكذا تكلّم زرادشت» ظناً من ابن عمتي بديع، وهذا اسمه، أن الكتاب يخص القضية الكردية. أما أختي روناهي، فقد أهدتني سلسلة ذهبية من مقتنياتها الشخصية، ويا لكثرة مقتنيات هذه الأخت المدلّلة. وإمعاناً في الاحتفال أهدتني جدتي هديتي المفضلة، وهي عبارة عن مائة ليرة بالتمام والكمال اختفت بعد ساعتين في سينما حلب بعد أن دعوت أصدقائي إلى حضور فيلمي المفضل «الرجل الذي لا يقهر» على أنغام البزر والكازوز والدخان.. هذه المرة مارلبورو.. السيجارة الأكثر مبيعاً في العالم، وليس الناعورة الرخيصة التي كنا نكتب دعايتها المؤلفة من قبلنا على لوح المدرسة «اشرب الناعورة وتمتع بالسعال الديكي».

بعد أيام رميت كتاب زرادشت بعد أن مللت من صفحاته العشر الأولى، وبالطبع فقد تكسرت الآلة الحاسبة، وكان قلب أبي قد تكسّر معها أنا الكسول حتى العظام في الرياضيات والحساب والجبر والهندسة وابن الهيثم. أما السلسلة الذهبية، فقد بعتها لشخص لطيف وجهه مشطوب بأكثر من ثلاث سكاكين عرّفني إليه صديقي عبد اللّه، وذلك لقاء مائتي ليرة دخل فيها ثلاثون طالباً من طلاب الصف العاشر شعبة ثانية إلى فيلم الكاراتيه «الأخوان كونغ فو في الغرب المتوحش» في سينما الكندي المختصة بالأفلام الملتزمة. وبالطبع تمت ضيافة الطلاب شتى أنواع الضيافة من كازوز وبزر وفستق ولوز ودخان موحّد تطبيقاً لقوانين الاشتراكية ألا وهو

مارلبورو.. السيجارة الأكثر مبيعاً في العالم.

كان رمزي الشعباني صديق والدي قد أحضر لي كنزتين من فرنسا على إحداهما برج إيفل، وعلى الأخرى قوس النصر. صباحاً ارتديتُ برج إيفل، ومساءً قوس النصر. وفي اليوم التالي كان اثنان من أصدقائي يرتديان الكنزتين اللتين لم أطقهما، وسُمي أحدهما ببرج إيفل والثاني بباب النصر، وهي حارة في حلب لا علاقة لها بقوس النصر لا من قريب ولا من بعيد. وعندما حاول أبي أن يمنحني الثقة أعطاني دفتر وصولات كي أوقع بنفسي للصيادلة وهم يدفعون لشركة أدويتنا، فما كان مني إلّا أن أعطيته لأحد العمال كي لا أحمله في يدي، وبعد شهر فُصِل العامل بعد أن قبض أكثر من عشرة آلاف ليرة، ولم ينزعج أبي إلّا عندما استغربتُ منه كيف يفصل العامل من عمله، فكان ذلك الفاصل السادي الإجرامي المعتاد الذي يمارسه عليَّ.

قالت لنا جارتنا أم حمدو إن ابنها حمدو لا يضع من البارفانات إلّا الريف دور، قالتها بفخر واعتزاز وذلك بعد لفظ حرف الـ V فاءً، فأصبحت الماركة ريف دور، ولمحت أختي مزكين التماعة الغيرة في عيني، فأحضرت لي زجاجة ريف دور تكسّرت بعد ثلاثة أيام وأنا أرمي أختي لولو بها غضباً، فارتطمت بالجدار، وأصبحت رائحة بيتنا «ريف دور» لمدة أسبوع اضطر أثناءها حمدو إلى تغيير بارفانه لأننا لم نعد نميّزه عند دخوله إلى بيتنا.

وكان عمي قد أهداني ساعة أوماكس ضد الماء، فسبحتُ بها بناءً على مزاياها، وانتهت الساعة شرّ نهاية، ومن وقتها لم أمتلك ساعة جديدة حتى ظهرت موضة السايكو ٥، فاشترى لي عمي الأكبر

واحدة تكسّرت بعد أن خبطتها بالمطرقة لأنها ضد الكسر كما قال لي البائع، وأصبتُ بذات الخيبة التي أصيب بها بائع الصحون الذي كان يرمي الصحون في الهواء لترتطم بالأرض وهو يقول «ضد الكسر.. ع الإيطالي»، وعندما طلبتُ منه أن يجرب لي صحناً طائراً انكسر فوراً.. ولم أدفع ثمنه طبعاً.. وقتها قال لي البائع: «هذا مثال عن الصحون غير الإيطالية»، وتابع مسلسله وهو يرمي الصحون دون أن تنكسر.

أحببتُ مجلة تان تان، وكنت أقتني كل أعدادها من حرّ مالي، وكانت تختفي بعد أن أقرأها وكذلك الكتب الكثيرة التي كنتُ أشتريها. وعبثاً حاولتُ أن أفتعل مكتبة، ولكن دون جدوى، فالكتب كانت تختفي بعد قراءتها كما لو أن هذا قانون.

ومرة أهداني صديق لوالدي علبة ذهبية عندما تفتحها تشاهد صورة لكلارك غيبل وتسمع موسيقا «سوناتا ضوء القمر»، وقد اختفت العلبة في ليلة ما فيها ضوء قمر.

وبدأ عصر الحب، فأهدتني صديقتي وردة بقيت في يدي ربع ساعة قبل أن أرميها في الشارع لأنني لم أعرف كيف أحملها، ثم أهدتني كتاباً لبابلو نيرودا سرعان ما أعطيته لصديقي الجاهل سمير كي أثقفه. أما الصديقة الأخرى فقد سرقت ساعة أبيها وأهدتني إياها، ولكن أحد الشعراء «العبثيين» سرقها من معصمي وأنا نائم عنده، ولم يصبح ذلك الشاعر شاعراً كما أنه لم يظل عبثياً ولكنه على ما أعتقد تابع مواهبه في السرقة، وهو ليس الأول ولا الأخير. فقد سرق واحد من اثنين زجاجة عطر أهدتني إياها حبيبتي، وشفع البريء منهما للمذنب، ولأنني لم أعرف المذنب منهما ولا البريء

فقد نسيتهما. ولكنني لم أنسَ حتى الآن زجاجة العطر تلك، خاصة وأن حبيبتي تحدتني مرة أن أكسر واحدة كانت قد أحضرتها لي من الماركة نفسها، فكسرتها، ولكنها أحضرت الأخرى.. أي زجاجة العطر المغدورة التي تحدثتُ عنها قبل قليل والتي لا أعرف على جسد أي حثالة تمّ رشّها.

ومرة أحضرتُ معي كتباً من لندن بينها مجلدان لأعمال الشاعر توفيق صايغ لم أستطع إكمال قراءتها، فأهديتها لأول شاعر حداثي زارني، كما أهديتُ أعمال أنسي الحاج لصديق أحبه، ولا أعرف من أخذ باقي الكتب التي تنتمي إلى دار الريّس جميعها، لتبقى مكتبتي عارية من الكتب مرة أخرى.

وما زلت إلى الآن أنتقل من بيت إلى بيت وأنا أحمل معي بعض الملابس والدفاتر حصراً وجهاز موبايل أهدتني إياه حبيبتي رغم أن الخط مفصول لأسباب مالية بحتة، أنتقل وأنا أفكر في تلك الأشياء التي امتلكتها وضيّعتها دون أن أعرف حجم الآلام التي كنت أسببها لهؤلاء الذين فكروا للحظة بأن يدخلوا السعادة إلى قلبي بواسطة هدية لم ينتظروا وقتاً طويلاً ليعرفوا بأنني.. ضيّعتها.

حرية وبس

كنت بالتمرين بنادي الحرية قام أجت وحدة معجبة فيني، قلت لحالي باخدها وبنام معها، عملت دوش ولبست بيجامة الرياضة الأديداس وحكيت تليفون مع أبو رمضون مشان يفضي لي بيته، قال لي «عم أستناك». وهادا أبو رمضون بيته ببستان القصر وهي حارة شعبية فيها أولاد أكتر من أولاد البرازيل. نزلنا من التاكسي راس الشارع ومشينا ع بيت أبو رمضون بأمان الله، كل شي تمام والأمور عال العال، الحارة فاضية وما في حدا من الجيران ع الشباك أو ع البلكون، وفجأة شافني ولد صغير وعرفني «مو أنت علي لاعب المنتخب وفريق الحرية؟»، انبسطت وهزيت له براسي وأنا عم أطّلع بطرف عيني على صاحبتي بفخر واعتزاز على قولة المتنبي.

وما طوّل هالفخر والاعتزاز أكتر من دقيقة، ستين ولد صاروا ورايَ

وهنن عم بيصيحوا «حرية.. حرية».. حييتهم بإيدي متل اللاعبين الأجانب وشديت البنت من إيدها وأنا وعم بقلها «لا تطّلعي وراكِ.. أسرعي شوي»، الستين صاروا مية وعشرين.. دوبلوا بلحظة وصاروا يصيحوا «أبو عادل أبو عادل.. حرية حرية». شدينا.. قام شدوا ورانا.. العمى.. فضيحة.. الناس صارت ع الشبابيك «مو هاد علي لاعب المنتخب؟»، «هاد اللي حطّ كول بكعب رجله ع الاتحاد»، والأولاد عم يكتروا، تطلعت فيهم وشفت زعيمهم قلت له «تعا لعندي» أجا مبسوط، قلت له «أنت مبين عليك كبير وفهمان.. رجّعهم»، قام صار يبهدلهم ويقول لهم «ارجعوا لوَرَا يا شباب» بس شفته عم يغمزهم، مسكت إيد البنت وركضنا.. ركضوا ورانا، وصلنا على مدخل البناية، قلت لها للبنت «اطلعي للطابق الرابع وأنا لاحقك». طلعت البنت وصرت أضرب الأولاد بالحجر مشان يرجعوا وكانوا عم بيشجعوني «طيبة أبو عادل.. حلوة علي»، ولـمّا رجعوا شوي لوَرَا فتت ع البناية وطلعت متل الصاروخ ع الطابق الرابع، قعدنا أنا وأبو رمضون والبنت، وبعدين فتنا على غرفة النوم لحالنا، مسكتها للبنت من إيدها وابتسمت لها وأنا وعم أقول «شعبيتي كبيرة» قالت لي «أنت سوبر ستار» مسكتها من إيدها التانية بس كنا عم نرجف تنيناتنا وكنت عم أتخيّل شي فاعل خير عم يخبر للأخلاقية مشان يمسكونا بالجرم المشهود، قام صرت أرجف أكتر، بعدين صرت أشجع نفسي وقلت لحالي «لأ يا علي.. هدول جمهورك وبيحبوك.. مستحيل يخبروا عليك» وحاولت أبوسها بس ما قدرت لأني قلت لحالي كمان «بس ممكن يخبّر علي واحد من جمهور الاتحاد»، وصارت شفايفي ترجف كمان، عانقتها للبنت مثل ما بيساووا بالأفلام قام حسّيت بجسمها كله عم يرجف.. صرت ألعب بشعرها، رفعت لها راسها وتطلعت فيها وحطيت شفايفي على شفايفها قام طلع صوت من تحت «حرية

حرية.. حرية وبس والباقي خس» قام وقفنا وأنا عم أتخيّل دورية الأخلاقية وهنين عم يدقوا الباب ويسحبونا ع الفرع.. يا لطيف. فتحت الشباك قام شفت منظر عجيب.. الجمهور صار جمهورين.. جماعة عرباوية.. يعني حرية وهنين حاملين أعلام خضر وجماعة أكتر أهلاوية.. يعني اتحاد وعلقت بيناتهم.. يا سلام، وتخيّلت الشرطة جاية تشوف الموضوع.. وطبعاً رح يعرفوا السبب.. والنتيجة بالمخفر أنا والبنت، قلبي صار يدق والبنت صارت تتلوّن.. شي يصير لونها أحمر متل فريق الاتحاد.. وشي أخضر متل فريق الحرية.. من الرعبة. سكّرت الشباك وقلت لحالي «طز فيهم.. العمى» وهجمت ع البنت.. صرنا ع التخت تنيناتنا.. وعلى بوس من الشفايف.. وجيت بدي أشلحها الفستان قام سمعت صوت زمور الشرطة، صار لون البنت أصفر متل فريق البرازيل. فتحت الشباك لاقيت الشارع فاضي، كل الأولاد هربوا وتخبّوا، طلعوا الشرطة بالسيارة وراحوا وهنين عم يزمّروا، صارت الساعة ١٢ بالليل.. هدوء.. ولا صوت.. ولا حركة.

تعانقنا من جديد.. وكنا عم نرجف تنيناتنا.. بستها من تمّها.. شلّحتها الفستان.. شلحت أنا كمان.. وعلى بوس وضمّ.. بس لا حياة لمن تنادي.. مديت إيدي.. ما طلع معي شي.. ولا شي.. العمى.. والبنت جسمها بارد متل فريق ألمانيا.. لبسنا.. نزلنا ع الدرج، ونحنا نازلين لقينا أولاد نايمين ع الدرج.. عم ينتظروني.. كل درجة عليها ولدين، وكل واحد نايم على كتف التاني.. نزلنا من بيناتهم.. أربع طوابق.. على مهلنا مشان ما يفيقوا.

وصلنا على باب البناية.. كان الشارع فاضي.. مسكت البنت من إيدها.. ضحكنا.. كانت حلوة كتير.. قلت لها «بحبك»..

ضحكتْ.. مشينا بالشارع وكانوا بقية الأولاد نايمين بجنب بعض ع الرصيف.. يا إلهي.. بصراحة.. كانوا أحلى أولاد شفتهم بحياتي.

علماء بهيئة سائقين

لم أجد في العالم كله من يشبه سائق التاكسي السوري، فهو كل شيء.. بروفيسور.. دكتور.. أستاذ.. باستثناء «شوفير». فما أن تطأ مقعدتك مقعد التكسي حتى يبادرك «الشوفير» بالقول «الله وكيلك ما بعرف الطريق.. دلني» وهو ينتظر مني أن أسأله «ليش ما بتعرف الطريق؟»، ليجيب قبل أن تنهي سؤالك بتنهيدة وجملة حزينة «أنا مو شغلتي شوفير.. أنا أستاذ جامعة.. بس الظروف والرواتب.. أنت بتعرف». وهكذا صعدت مع مهندسين وأطباء وأساتذة وعلماء ذرّة ولكن بهيئة «شوفيرية»، هذا باستثناء الشوفيرية المخابرات أو من يدّعون بأنهم مخابرات بشكل مباشر أو غير مباشر. فالمخابرات عادة يكون سرياً، أما عندنا، فالأمر يختلف، فما إن تدردش مع الشوفير قليلاً حتى يوحي لك بأنه مخابرات كي يأخذ منك الأجر الذي يريده سواء شغّل العداد أو لم يشغّله. ولكن سيكولوجيا الشوفير

تفوق ما ذكرت هولاً، فالشوفير يعتبر نفسه من أفهم الناس وأكثرهم فهلوية وذكاء، وهو يعتبر كل رجل يصعد معه مشبوهاً حتى يثبت العكس، وكل امرأة عاهرة حتى لو أثبتت العكس. كما أنه يصرّ على سماع المسجلة بصوت عالٍ، فإذا أبديت إعجابك بالشريط الموسيقي هزّ رأسه إعجاباً باختلافه عن عامة الشعب وذوقهم المنحط، وحدثك طوال المشوار عن علاقته القديمة بالموسيقا. أما إذا تجرأت وطلبت منه تغيير الشريط، فإنه يبادر مباشرة إلى اتهام شريكه في الوردية الأخرى للتاكسي «اللّه وكيلك ما بعرف من وين بيجيب هالأغاني»، ثم يتابع فصلاً من النميمة ضد شريكه «عالِم الذرّة» السائق الآخر حتى تصل إلى مشوارك ورأسك مليء بسيرة حياة سائق لا تعرف حتى شكله.

مرة صعدنا مع سائق فهلوي، وكان شعري طويلاً جداً، فما كان من الشوفير إلّا وأن أدخل أنفه وسأل أصدقائي عني: «شو.. الأخ أجنبي؟». تغامزنا وأجابوه: «نعم.. إيطالي.. بس الله وكيلك هلكنا.. ما في أغلظ منه». هنا ابتسم الشوفير خبير اللغات بتعالٍ، وسألهم إذا كنتُ أعرف العربية، فأجابوه: «جحش.. ما بيعرف ولا كلمة»، ابتسم الشوفير ابتسامة أعرض وقال: «شوفو شو بدي أعمل لكم فيه لها الإيطالي». وبدأت ملحمة من الذكاء وخفة الدم والشطارة من الصعب نسيانها.

التفت السائق خبير اللغات وقال لي: «هاو آر يو؟!»، فقلت له: «غود.. فيري غود».. ابتسم وقال لأصدقائي: «لسّه ما شفتوا شي»، ثم التفت إليَّ وقال: «سيريا غود يا جحش». فابتسمت وقلت: «غود.. فيري نايس»، ضحك أصدقائي بعنف، فتحمس الخبير السياحي السائق وقال لي: «يو آر هابي يا حيوان؟!». قلت: «يس»،

وسالت الدموع من أعين الشباب من الضحك بينما كان السائق مبتسماً ومزهواً بخفة دمه وذكائه، وتابع مشيراً بيده وفمه دلائل امتداحي: «يو آر كديش.. بغل.. فيري غود»، فقلت له: «تانك يو». وانفجرت السيارة من الضحك، ازدادت حماسة الوزير السائق فقال لي: «يو آر فيري نايس.. يو آر.. حمار معبّى ببنطلون»، ولم يمنع نفسه من الضحك في نهاية الجملة بينما كان الشباب قد أضحوا في غيبوبة من القهقهة، ووصلنا.. فصمت الجميع مانعين أنفسهم من الضحك بينما كان الشوفير يتابع مآثره الكوميدية، فبادرته وبالعربية: «أديش بدّك يا جحش يا زبالة يا بلّوعة؟!»، امتقع وجه الشوفير كأنه وزير قد خُلع من منصبه للتو، فتابعتُ بسادية: «ما قلت يا ألف حمار عم بيعلفوا سوا أديش بدك؟!»، نظر الوزير المخلوع إلى الكتلة الشبابية الجالسة في سيارته وقال بصوت مخنوق: «ما بدي شي.. خوزقتني».

ولم تمضِ أيام حتى صعدنا أنا والفنان التشكيلي أحمد معلا في تكسي آخر، ولكن بعد معاناة، فالتكاسي لا تتوقف إلّا للخليجيين في فصل الصيف، لذلك وقفنا عند إشارة المرور وبمجرد وقوف السيارات حدثت سائقاً باللهجة الخليجية، فبشّ في وجهي بعد أن كان متجهماً وصعدنا. جلست في الأمام وجلس أحمد في الخلف، وقلت للسائق: «نبغي نروح على دمّر يا خوي»، قال السائق المحبّ للوحدة العربية: «أهلين بإخواننا العرب.. من وين حضرتكم بلا صغرة؟!»، قلت: «من الكويت يا خوي»، فانفرجت أساريره وهو يتخيّل الدينار الكويتي الذي يساوي ١٧٠ ليرة عدّاً ونقداً. نظر أحمد إلى العداد وقال لي بلهجة كويتية: «شنو هذا؟!»، فقلت له: «هاذا عدّاد.. كلما تمشي السيارة يزيد عدد الفلوس اللي لازم ندفعها». وبالطبع فإن العداد يظهر المبلغ المطلوب بالقروش، فال ٤٠٠

قرش تصبح بعد قليل ٥٠٠ قرش، أي خمس ليرات، وهكذا حتى نصل إلى دمر، فيكون المبلغ حوالى ٢٧٠٠ قرش، أي ٢٧ ليرة، ولكني شرحت لأحمد باللهجة الكويتية عن العدّاد وأنا أقلب القروش إلى ليرات، وقلت له: «شوف.. هالسّع المبلغ ٤٠٠ ليرة.. هاه هالسع قلَبْ وصار ٥٠٠ ليرة». وما إن سمع الشوفير عاشق الوحدة العربية جملتي الرهيبة التي قلبت القروش إلى ليرات ببلاهة حتى قال لي: «أهلين.. الكويت وطننا الثاني»، وتابع أحمد فرجته على العدّاد وبدأ يعدّ الأرقام كلما تغيّرت وازدادت «هاه.. صار المبلغ ٧٠٠ ليرة».

وبدأ كيان عاشق الوحدة العربية يهتز طرباً لانقلاب القروش إلى ليرات، هذا الكيان الذي لا يذكرني بالكيان الصهيوني المزروع في قلب الأمة العربية أبداً. صحت بأحمد: «شوف يا خوي صار العداد ١٢٠٠ ليرة». وكانت دموع الفرح تهطل من عينيّ صناجة العرب الذي قال: «يا أخي الكويتيين قبضايات». وتذكرت غزو الكويت دون أن أعرف لماذا؟! وصلنا وكان أحمد يقول: «هاه.. صار العداد ٢٧٠٠ ليرة». قلت لصناجة العرب أن يتوقف وسألته: «كم تريد؟!»، فقال لي بعد أن ألقى خطبة عصماء عن وطنه الثاني: «ع العداد أخي.. أنتو إخواننا العرب ما بناخد منكم أكتر من العداد»، قلت: «لا.. نحن نريد ننطيك على كيفك.. اللي تبغيه لأنك آدمي وتحب الوحدة العربية»، فقال وهو يحلف بأغلظ الإيمان: «وحياة مين حرّر الكويت ما باخد أكتر من العدّاد».. فقال أحمد: «لأ.. نريد ننطيك اللي تبغيه»، فقال وقد نفد صبره: «أخي ع العدّاد.. إقرا الرقم وادفع.. صار لكم ساعة عم تقروا»، فأصرينا على أن يقول الرقم، فقال مستسلماً: «أخي ع العدّاد ٢٧٠٠ ليرة بس». نظرنا إليه بسادية وحقارة لا مثيل لهما أنا وأحمد، فأعاد

الرقم: «٢٧٠٠ ليرة بس.. ع العداد»، تابعنا نظراتنا السادية والحقيرة، وقلت له بلهجة مغرقة في المحلية على اعتبار أن المحلية هي الطريق إلى العالمية: «٢٧٠٠ ليرة أجرة توصيلة من قلب الشام لدمّر.. شو مفكرنا حمير ولاه؟!». زمّ صناجة العرب سابقاً شفتيه وقال: انزلوا.. خوزقتوني.. ما بدي مصاري»، نزلنا ولم ندفع، وكان السائق يدور بالسيارة بعنف وهو يبرطم بجمل غير مفهومة عن الكويت وغزو العراق لها، بينما كنت أقول لأحمد أن يستأجر لنا منزلاً في بناء عمره قصير كي لا نضطر إلى البقاء تحت أنظار العلماء لفترة طويلة ونحن نسمع شتائمهم العلمية.

من سيرة الهر المنزلي

لم أكن أحبّ القطط، ولم أفكر يوماً بمداعبة أحد القطين اللذين يعيشان في بيتنا، بل كنت أستغرب دائماً ما يجعل القط هكذا ذا كبرياء، ولم أفهم أيضاً لماذا هو معتدّ بنفسه هكذا، إلّا أنني غيّرت رأيي في إحدى الأمسيات عندما كنت عائداً إلى البيت بعد ارتكابي حماقة لا أتذكرها وغيابي لأكثر من أسبوع عن البيت، كان معي أحد الأصدقاء عندما فتحت أختي الباب ونظرت إليَّ ببرود وعتاب فيه شيء من التشفي. دخلنا وكان الجميع يحملون ذات المشاعر، بل إن أياً منهم لم يرد عليَّ، وفي تلك اللحظة حدث شيء مدهش إذ ركض من بين أقدامهم القط الأشقر «حسونة»، ورمى نفسه على صدري معانقاً إياي.

غيّرت الحادثة رأيي في القطط، وأصبح «حسونة» صديقاً محبباً إليَّ

وكذلك زوجته «نونو» البيضاء تماماً، إلّا أنني كنت أرى أن في حسونة شيئاً ما يبعث على الطيبة وبذات الوقت فيه شيء من الكبرياء، إذ إنه لم يكن يمدّ يده إلى قطعة طعام دون أن يقدمها له أحد، حتى لو كانت في متناول يده. أما نونو، فكانت على خلافه، وهو أيضاً كان على خلاف مع نفسه، ولكن خارج البيت، كان حسونة يصعد يومياً إلى الطابق الرابع ومنه إلى السطح حيث تقبع حمامات جارنا أبو صبحي، وهناك يتمكن من إحداها ويأكلها ثم يعود إلى المنزل كأن شيئاً لم يكن، وبالطبع أثارت غاراته اليومية حقد الجارين أبو صبحي في الطابق الرابع والحاج أحمد في الطابق الأرضي، فبدآ حصارهما لحسونة الذي يقطن معنا في الطابق الأول حتى تمكنا منه، فوضعه الحاج أحمد في سيارة عمر، وهو جارنا أيضاً، ومضيا به خارج مدينة حلب، ورمياه هناك قرب تمثال الخصب، وعادا، وعندما نزلا من السيارة وأصبحا في مدخل البناية وجدا حسونة يسبقهما إلى الدرج.

وفي محاولة أخرى وضعه أبو صبحي في كيس وخرج به إلى الراموسة كي يصلح سيارته هناك، ورماه في الطريق وعندما عاد وتفقد حماماته اكتشف أن حسونة قد قضى على إحداها قبل لحظات.

بقي حسونة في البيت، ولكننا فرضنا عليه نظاماً صارماً كي لا يخرج ويزعج الآخرين، ولكنه كان يهرب دائماً من نافذة المطبخ رامياً نفسه من الطابق الأول إلى الشارع مباشرة ثم يعود ويقف أمام الباب ويموء فنفتح له، وكانت إحدى هواياته المفضلة هي التمرغ في شحار المداخن لذلك لم تنفع محاولاتنا في غسله وتحميمه على تغيير طبعه. أما نونو، فكانت شاردة دائماً وهادئة، ولا تملك من

الطباع السيئة شيئاً سوى أنها تأكل دون أن تنتظر من يقدم لها الطعام، كانت تجلس في بلكون المطبخ الصغير وتختار لها ركناً مطلاً على الشارع وتبقى هناك ساعات عديدة وهي تفكر في أمر غير معروف إلى أن ولدت وأنجبت هرّين جميلين أحدهما فرهاد والأخرى فلّة. كان الوليدان شقراوين لم نكتشفهما فوراً لأن نونو لم يكن يبدو عليها الحمل وعندما جاءتها الولادة مكثت تحت السرير في غرفة أخواتي وبالصدفة اكتشفنا ذلك، بدأ فرهاد وفلّة بالإزعاج مباشرة، فكانا يلعبان فوق رؤوسنا ونحن نيام حتى الصباح، وكانا كلما ازدادا صخباً ازدادت نونو تأملاً وحزناً وازداد حسونة مكوثاً خارج البيت.

لم يأخذ أي من القطين الجديدين تهذيب والدهما على الإطلاق، بل كانا يسرقان الطعام من بين يديه، إلى أن ضاق حسونة ذرعاً، فلطم فرهاد لطمة أذهلتني، وظننت نفسي أشاهد فيلماً هندياً أو مصرياً، كان أباً بكل ما تعنيه الكلمة، حنوناً وقاسياً، رقيقاً وصارماً.

كنت في لندن عندما جاءتني رسالة من أختي تعلمني فيها أن «فرهاد» قد اختفى، شعرت بحزن عميق، وأحسست يومها بأن هذه الحيوانات الصغيرة قد أصبحت جزءاً منا، وحين عودتي كانت فلّة قد كبرت وأصبحت أجمل من ذي قبل، بل كنت أحسّ فيها خيلاءها الأنثوي وكبرياءها.

أما نونو، فكانت ملامح الشقاء والبؤس قد تأكدت فيها بينما كان حسونة يعاني من مرض غريب إذ إن شعر جسده كان يهرّ بسرعة لا متناهية.

في تلك الأثناء كنا نعد أنفسنا للرحيل إلى منزل آخر وسط حلب، وكانت لهذا المنزل حديقة واسعة جداً محتوية على أشجار سرو وصنوبر ونارنج ومشمش.. إلخ. وكنا قد قررنا سلفاً أن نترك حسونة لأن مرضه على ما يبدو معدٍ. وبالفعل أخذنا نونو وفلّة فقط بينما بقي حسونة وحيداً. كان يومها كعادته خارج البيت، وعندما عاد أحسّ أن البيت خال، فدخل من نافذة المطبخ، وبقي يحوم طيلة الليل داخل البيت الخالي وهو يموء بصوت عالٍ. هكذا قالت جارتنا التي بكت من فرط تأثرها بالصوت القادم من بيتنا، فما كان منها إلّا أن أحضرته إلى بيتنا الجديد، وهناك كان المشهد المدهش في لقاء العائلة الحميم وعناق الثلاثة المؤثر.

قبل أن يأتي حسونة كانت إحدى أخواتي قد جلبت معها قطة رمادية جميلة جداً ومخططة. سموها «لولو». وكان هناك قط طويل يأتي من المبنى المجاور ويبدأ فصولاً من الاعتداء على قطط البيت، سمي القط الطويل بـ «ترين» لأنه كان يشبه القطار بطوله. وبقي «ترين» لعدة أيام مصدر رعب لنونو وفلّة ولولو، إلى أن جاء حسونة، فما كان من ترين إلّا أن حاول تلقين القادم الجديد درساً، ولكن المشهد انقلب بالعكس، وشاهدت حسونة وهو يحشر ترين في إحدى الزوايا وينظر إليه ثم يلطمه.. كانت لطمات حسونة تشبه لطمات الإنسان إلى حدّ كبير، ولم يكن يعض أو يخرمش. كان يلطم فقط بشكل مهيب كأنه يحطم خصماً نفسياً أولاً ثم يبدأ بضربه. اختفى ترين ولم يعد له من أثر، ولم تمضِ أيام حتى جاءنا قط جديد جلبه صديق من تركيا، اسمه «نمر» أشقر ومخطط كان بحجم برتقالة متوسطة، وكان يأكل بشكل مثير للدهشة، ويرمي نفسه في حضن أول شخص يصادفه، وإذا كان ترين قد اختفى، فإن قطاً آخر قد ظهر، أسود اللون تماماً ويلمع بشكل غريب، كان في

طبيعته برياً أكثر مما هو أليف، لذلك لم يكن يمكث في الحديقة إلّا لكي يشاكس القطط الأخرى، وكان يهرب عند أدنى حركة. لم أجد قطاً شكّاكاً مثله في حياتي، ولكنني كنت معجباً بأنفته وكبريائه على الرغم من كونه في حجم «نمر» تماماً وفي عمره، وقد سماه جارنا المحامي «هلول» على اسم أحد موكليه. وسيكون لهلول هذا دور كبير في ملهاة قطط منزلنا المجنونة.

منذ قدوم نمر بدت على حسونة علائم الغيرة، فخرج من البيت، ولم يكن يعود إلّا ليلاً. وفي يوم خريفي مكفهرّ وقف حسونة كالمجنون أمام الباب يريد الخروج. وكان يهجم على النافذة محاولاً كسرها حتى فتحناها له، فركض مسرعاً إلى الحديقة ومنها قفز من فوق الباب الخارجي بسرعة رهيبة، ركضتُ إلى الحديقة، فوجدته يجتاز الشارع الأوتوستراد دون أن يأبه للسيارات العابرة حتى وصل إلى الرصيف، وهناك أبرقت السماء وأرعدت، وسقط حسونة في آخر قفزة له جثة هامدة قرب شجرة ضخمة وعارية. لم أر حزناً كهذا الحزن يلف البيت على فقدان حسونة. كانت أختي الصغرى تبكي بحرقة، وكان أبي حزيناً لفقدانه وكذلك الجميع، أخذناه إلى حديقة الأندلس ودفناه هناك، وكنت في أعماقي حزيناً على هذا القط الذي استقبلني ذات يوم وحده ورحّب بي في البيت الذي عبس في وجهي عقاباً على حماقاتي المتكررة.

انتبذت نونو لنفسها ركناً مطلاً على الشارع، حيث لقي حسونة حتفه. وبقيت تقضي معظم وقتها في شرود غريب، وكانت قد ازدادت جمالاً ووقاراً بالحزن المهيب الذي بدأ يغلف حركتها إلى أن خرجت ذات يوم، وكان واضحاً أنها ذاهبة لتنفق في مكان آخر بعيداً عن أعيننا و ...لم تعد.

سافرت إلى روسيا وعدت بعد تسعة أشهر لأجد نمر قد أصبح ضخماً وكبيراً من كثرة الأكل. أما فلّة فقد أضحت أجمل، وكانت وحدها التي عرفتني وركضت إليَّ تشمني بل وتقبّلني أيضاً. أما لولو فكانت جميلة جداً وذات حركات مجنونة تدل على أن هناك مساً في عقلها، ولفت انتباهي قط غريب جلس في حضني وكان يشبه «النمر الوردي». ثم عرفت أن هذا القط قد دخل إلى البيت صباح خروجي منه إلى روسيا، وأنه قد جلس في حضن أمي فبكت وسمته «غريب».

كان «غريب» حالة خاصة لأن وجوده ارتبط بي، ولم تمضِ ساعة على قدومي حتى كان غريب قد اختفى، بينما بقي بيسو يتردد إلى البيت ويختفي أياماً ثم يعود إذ إنه لم يكن سوى زائر عابر، إلّا أنه بعد فترة أصبح مقيماً بشكل رسمي. كان يعود بعد منتصف الليل ويموء بصوت عال كأنه دائم البحث عن شيء، وكانت له معارك هامشية مع نمر سرعان ما انتهت. إلّا أنني لم أرهما معاً في البيت أبداً، فعندما يأتي نمر يخرج بيسو وبالعكس. وعادة كان بيسو يأتي ليلاً بعد أن يختفي لأسبوع أو أكثر، أما نمر فكان سيد البيت بضخامته وجماله المهيب، وكان له ركنه الخاص على المائدة وصحنه الخاص، وكنت أحسّ أن عليه أن يأكل المقبلات أيضاً نظراً لتصرفاته الإنسانية، إذ إنه بعد الطعام مباشرة يسترخي وينام، دون أن يشرب الشاي، كما كنت أعتقد أن عليه أن يفعل ذلك. وأثناء غيابي حبلت فلّة من نمر، ولكنها أجهضت في معركة خارج البيت، فعادت وهي في حالة يرثى لها وقبعت في خزانتي لمدة أسبوع لا تخرج إلّا للضرورة.

ذات يوم عادت أمي وفي يدها قط صغير أبيض اللون وهزيل جداً،

قالت إن الجيران استحلفوها أن تأخذه لأنهم لا يريدونه. وسرعان ما قلّب جارنا المحامي دفتره مفتشاً عن أجمل اسم من أسماء موكليه كي يسمي القط، وبالفعل سماه «شمندي»، وعلى الرغم من معارضة الجميع لهذا الاسم، فإن اسمه التصق به. بدأت حملة الحماية للوافد الجديد من بقية القطط. كان شمندي يدافع عن نفسه ويستعد للقتال حتى ضد نمر، فيقوس ظهره ويزمجر، فيصبح منظره مميتاً من الضحك أمام القط المقابل له، بشكل اعتيادي إلى أن غابت لولو عن البيت ولم تعد.

كان صغيراً جداً وهزيلاً، وعلى الرغم من الطعام الكثير الذي كنا نقدمه له، فهو لم يسمن. وبعد فترة بدا زاهداً بالطعام، وكان يكتفي بسرقة الخبز. وعندما كان يخرج إلى الحديقة يقع في مأزق بمواجهة هلول الأسود الذي أصبح شمندي من هواياته المفضلة، ولولا أنني كنت موجوداً لكان هلول قد خنقه في إحدى الأماسي. كما تعرض شمندي للطرد كثيراً وبالإجماع. ولكن أختي الصغرى كانت تعيده، وبعد فترة كان قد أصبح صديق والدي الحميم، الذي بدأ يأخذه في عطلة نهاية الأسبوع معه إلى بيتنا الريفي في كفر جنة ويعيده، وعند هذه النقطة تماماً كان صبر نمر قد نفد من الوافد الجديد واختفى من الغيرة لمدة أسبوع، ثم عاد وبقي مضطرباً، ولكنه كان في أعماقه مسالماً ولم أرَ له أية معركة منذ أن جاء إلى أن اختفى مرة أخرى ولم يعد حتى الآن.

وبعد شهر من اختفائه جاءنا قط يشبه نمر إلى درجة كبيرة، ولكنه لم يكن مخططاً وكان صغيراً. سميناه جودي، وعاش عندنا بعد أن ارتبط بعلاقة طيبة مع لولو وشمندي، وأصبحوا ثلاثياً جميلاً في لعبهم وحركاتهم بينما كانت فلّة وحيدة وحزينة وذات كبرياء

يمنعها من الاختلاط بأحد. كان جودي يخاف مني بشكل غير مألوف، ويهرب كلما سمع صوتي أو رأى شكلي، ولم يكن يأمن لي إذا قدمت له الطعام، إذ إنه لا يقترب لأكثر من متر. وإذا رميت الطعام أمامه فإنه يلتقطه بفمه ويهرب بسرعة غريبة. وفي إحدى الليالي كنت حزيناً للغاية وكان الجميع نياماً، خرجت من غرفتي، وفي الممر صادفت جودي، فجلست على الأرض، نظر إليَّ وأحس بحزني ولم يهرب، بقي واقفاً ينظر إليَّ كأنه يشاركني أحزاني، ولكنه بعد ذلك تراجع إلى الخلف بهدوء شديد، وانسحب على مهل كي لا يخدش مشاعري، فهو في النهاية يخاف مني بشكل مرعب.

كانت لولو إذا وضعتها بجانبي سرعان ما تنام، ولكنها سرعان ما تستيقظ أيضاً وتمضي إلى الصالون حيث يبدأ الثلاثة فصولاً من اللعب المجنون حتى الصباح. ولم يختلف الوضع كثيراً عندما جئت معي بقط سميته «جيجك»، أي الوردة، كان شكله جميلاً ومبهجاً، وكان في أسبوعه الأول يأكل كل ما يقع بين يديه، وكنت أضعه على الخزانة، فيرمي نفسه دون أن يأبه لشيء من أجل أن يأكل معي. وعلى الرغم من أن أي وافد جديد سيثير الإزعاج للآخرين، فإن جيجك كسر القاعدة وأصبح صديقاً للجميع، بل كان يسهر معهم أيضاً في الصالون، وكان لا يخاف من هلول الذي لم يستطع في أية مرة أن يتمكن منه. ففي كل مرة كان يأتي شخص ليلتقط جيجك ويعيده داخل البيت. وبعد فترة وجيزة بدت علائم التعب واضحة على جيجك، فأخذته إلى الطبيب الذي وخزه إبرة وأعطاني بعض الأدوية السائلة ضد التهاب الأمعاء الذي أصيب به. وبعد أسبوع لم يتحسن، فأخذته أنا وأختي إلى الطبيب ذاته، وعلى الطاولة هناك مات بشكل تراجيدي كما يموت أي فارس شجاع،

كانت حركاته قبل أن يموت مثيرة للبكاء، دفناه في حديقة الأندلس التي أصبحت مقبرة الأبطال من قطط بيتنا.

كانت فلّة أشد حزناً عليه لأنها كانت تتصرف وكأنها أمه، وكانت تحميه من أي اعتداء، أما البقية فأكملوا حياتهم.

كان شمندي لا يخرج من البيت أبداً، ولكنه بعد اختفاء لولو كان يخرج كأنما ليبحث عنها ويعود إلى أن صدمته سيارة، فصعد متثاقلاً درج الحديقة، وكان عامل النظافة خلفه وقد رأى الحادث. لم تكن هناك آثار جروح، ويبدو أنه أصيب في رأسه. أمسكته أمي بكفها ورشّت على وجهه بعض الماء، فصحا قليلاً، ونظر إلى أمي بعينيه الحزينتين دائماً نظرة امتنان ثم مات في ذات الكف التي أحضرته إلى البيت.

ولم يطل بي الوقت لأكتشف أن هلول قد اختفى تماماً منذ موت شمندي. كنتُ أمشي في حديقة بيتنا ليلاً وأنا أشم رائحة الحزن في أركان القطط الخاوية من أبطالها، هؤلاء الأبطال الموصوفون بالكبرياء والألفة معاً، الذين يقفون على المزابل.. بشمم وإباء.

أهلاً أخي زياد

بيروت، بار شيه أندريه.

جلس أبو صطيف الحلبي على كرسي، واستند بكوعه إلى البار طالباً زجاجة بيرة. وبعد أن شرب نصفها التفت إلى شخص نحيل صامت يجلس بجانبه وقال له: عفواً أخي.. ما تعرفنا على الاسم الكريم، أنا أبو صطيف الحلبي تاجر ألبسة داخلية، يعني أنا في بيروت للشغل، بس بحب البسط ومشان هيك جئت للبار، بس أنا ما بحب أقعد خالي النديم، مشان هيك بدي أساويك نديمي، عفواً ليش اسم المحل شيه أندريه؟

ـــ .....[1]

(١) النقاط مكان الردود هي الأجوبة المفترضة لزياد الرحباني.

ـ ها.. على اسم صاحب المحل.. هادا نفسه اللي عم يعطينا الطلبات.. حلو.. أخي شيه إذا سمحت قنينة بيرة تانية، شوف أخي.. عفواً ما تعرفنا على الاسم الكريم؟

ـ .....

ـ زياد؟ أهلاً أخي زياد.. بس ما قلت لي زياد إيش؟

ـ .....

ـ رحباني؟! إي بيت رحباني معروفين عندنا في حلب وسمعتهم متل المسك، أهلاً وسهلاً أخي زياد، ما قلت لي اش بتشتغل؟

ـ .....

ـ موسيقي؟... يعني آلاتي[٢]، على أي آلة بتعزف؟

ـ .....

ـ بيانو؟! أي اش عليه، البيانو آلة كويسة، بس المهم وين بتعزف وبتغني.. بأي مطعم يعني؟

ـ .....

ـ ما بتعزف بالمطاعم ولا بتغني بالأعراس؟ أي ما بيصير أخي زياد، إذا بدك تظل تسجل لحالك كاسيتات ما بتستفيد شي.. بيرة أخي شيه، لازم تغني بالأعراس مشان تطالع مصاري، أخي تعال لحلب

---

(٢) يسمى العازف ـ أي عازف ـ في حلب بـ (آلاتي) كونه يعزف على آلة.

وأنا بدبرك لأنو المطرب سمير جركس صاحبي للموت، سمعان فيه طبعاً، أي أبو سمرة أشهر من نار على علن[٣]، بحكي لك معه مشان تطلع وراه بالأعراس والتلبيسات، ما فيها شي.. شكراً أخي شيه، وإذا بتعزف وراه بتاخد مصاري أكتر بس بدك تغير آلتك لأنو البيانو.. عدم المؤاخذة ــ تقيل وبيلزمه سيارة سوزوكي تجيبه على الحفلة وأربع حمّالين يطلعوه على السطح، لأنو كل الحفلات والتلبيسات والطهورات وحفلات التسريح والنجاح في البكالوريا وشهادة السواقة بيصيروا على السطح متل ما بتعرف، بقي غيّر هالآلة وشوف الشغل، ما بتعزف على آلة خفيفة ونظيفة؟

ــ .....

ــ بزق؟! أي البزق كويّس وفهمان ودقيق، بعدين البزق آلة حزينة وبتسبب الفرح، وشغلتك سهلة بالعزف والغناء، بالعزف بيلتفت أبو سمرة عليك وبيقول لك «دولاب بيات أبو الزوز» اش بتعمل أنت؟!.. بتعطيه دولاب بيات، بس إنشاللّه تكون بتعرف بالمقامات أخي زياد؟!

ــ .....

ــ بتعرف ؟! إي منيح كتير، وبالنسبة للغناء أسهل بكتير، أبو سمرة بيقول «كنا ستة على النبعة» وأنت بترد وراه «أجا المحبوب صرنا سبعة»، دير بالك تخربط بالرقم، يعني عملية حسابية بسيطة

---

(٣) (علن) خطأ تفاصحي والمقصود (علم).

٦+١=٧، لأنك إذا خربطت بيزعل منك أبو سمرة وساعتها ما في مجال للنقاش بتحمل آلتك وبترجع لحياة الظلمات في بيروت، وانتبه أخي زياد من شغلة تانية بتصير بالتلبيسات وهي «القتيلات»، يعني بس يصير سوء تفاهم بين المعازيم بدل ما يضربوا بعضهم بيضربوا الفرقة، وساعتها أبو سمرة بيصيح بالفرقة «فكوا الجهاز» إنتو بتفكوا الجهاز وكل واحد منكم بيحمل آلته بإيد وبالإيد التانية بيساعد زميله على حمل «البافل»، وتحت شعار «اللي بيحب النبي يخلي» بتفركوها قبل ما تاكلوا قتلة، على كل حال ما لنا علاقة بالطوارىء. بتخلص الحفلة وبتاخد لك شي ٤٠٠ ليرة ــ بيرة أخي شيه ــ وبتروح على مطعم «حنا كعدة»[٤] بتقعد وبتصيح «بطحة عرق يا ابني» وبتسكت، دير بالك تحكي غير هالجملة، بعدين بينخرب بيتك بالحساب، وكمان لأنو ما في داعي لشي ــ أهلاً أخي شيه ــ على اعتبار انو بطحة العرق بينزل معها صحن حمص وصحن بطاطا مسلوقة وصحن لبنة ببلاش، بعدين بتقول للكرسون «روح جيب صحن حامض وثوم وزيت وصحن كبير فاضي بطريقك جيب لنا بصلة خضراء» وهي الشغلات كلها ببلاش بالإضافة لخبز التوست اللي بتكسره وبتحطه بالصحن الفاضي وبعدين بتفرم البصلة فوقه وبتحط كمون وفليفله ونعناع وملح وبتصب فوق الحامض والزيت بصير قدامك وجبة محترمة بتاكلها وبعدين بتاخد شفة عرق ولحسة لبنة ليش؟!.. لأنو اللبنة بتعمل «لحاف»[٥] حول المعدة وبالتالي ما بيؤذيك العرق، بتخلّص وبتدفع ٥٠ ليرة بس.. يعني دولار وبتمشي، ومشان يصير الكرسون

---

(٤) حنا كعدة.. مطعم شعبي في حلب.

(٥) (لحاف) خطأ تفاصحي آخر والمقصود (لحاء).

صاحبك ناوله خمس ليرات.. ليش؟ مشان كلما تجي يقول لك بصوت عالي «أهلاً يا أستاذ زياد» وهيك بيصيروا الزبائن يحسبوا لك حساب، وغير هيك بيصير الكرسون يسرق لك كم صحن من هون ومن هون وبيحطهم قدامك وهو عم بيقول «شرّفت أستاذ زياد» وبعدما تخلّص بتركب بالسرفيس وبتروح على ساحة الكلاسة عند «أبو حمدو الشوّا» اللي بيوقف عربانته بنص الساحة وبتطلب سيخ معلاق[٦] مشوي بـ ٢٥ ليرة وكاس عرق كبير بعشر ليرات، بتاكل وبعدين بتشرب على مهلك والمازا تبعك ريحة الشوي، بس ما سألتني عن المعنى من روحتك لعند أبو حمدو، هون حطنا الجمال، لأنو أبو حمدو ملتقى الفنانين بدك تقول نقابة فنانين.. ليش؟ لأنو كل الفنانين بعد ما يخلصوا حفلاتهم بيجوا لعنده وهنيك خود نقاشات بالفن واستفيد أخي زياد من الفنانين وهم يتناقشوا على الـ «دو» والـ «ره» والـ «نهاوند» و«العجم» والـ «دُم» والـ «تك»، طبعاً هي شغلات صعبة عليك أخي زياد بس أش المانع أنو الإنسان يتعلم؟!.. ما قلت لي أخي زياد في حدا غيرك بالعائلة بيغني؟

— .....

ـ الوالدة؟! شي حلو ـ بيرة أخي شيه ـ وأش اسمها؟

— .....

ـ فيروز؟ .. فيروز اسم حلو وفني، أي والله حرام عليك أخي زياد، ليش خانقها هون ببيروت؟ جيبها لحلب مشان تنطلق، لأنو

---

(٦) معلاق.. أي كبد، يقال للشخص الغليظ أيضاً (معلاق).

كل الفنانين في العالم انطلقوا من حلب، حرام عليك تارك الوالدة ببيروت لا حدا بيعرفها ولا حدا سامع فيها، إي حلب بالنسبة للفنانين «كراج انطلاق». بزمانه محمد عبد الوهاب أجا من الصومال ما كان حدا بيعرفه، ومن حلب انطلق، وكمان عبد الحليم حافظ وعبده الحامولي وسيد درويش وجمال الدين الأفغاني. أخي بنجيب الوالدة وبنحطها عند الحاجة أمي بيتسلوا مع بعض وهنيك بشوف لها أعراس نسوان تغني فيهن.. يعني ما في ولا زلمة بالعرس والفرقة اللي معها كمان نسوان، قدرية على العود وأم ديبو على الكمنجة وأم شمندي على الرق وعيوش على الدربكة وهيك بيصير عنا بالفرقة تخت شرقي، وأنا أموت بالتخت الشرقي.. ليش؟! أخي بيناسبنا أكتر من التخت الغربي، لأنو التخت الغربي ضيّق وما بيتحمل، بعدين بيزقزق كتير، يعني عدم المؤاخذة نحن نسواننا «حسن وسمن وغمازات»[٧]، والتخت الغربي ما بيتحملهم. إي بيخفس تحتهم وبينكسر بينما التخت الشرقي واسع ومريح وقوي، أخي مصمم على مزاجنا، ما هو مستورد متل التخت الغربي، أي أنا ما أطيق الاستيراد.. بحب التصدير أكتر، أنا كان عندي شركة استيراد وتصدير، بتعرف اش عملت؟!.. قلبتها تصدير صافي وألغيت الاستيراد.. هيك الشغل أخي زياد.

بعدين بس تصير الوالدة معروفة بنعمل لها حفلات على مسرح نقابة الفنانين، وأنا بدبر المسرح لأنو كل المسؤولين بالنقابة أصحابي، والموافقات أنا بجيبها من السياسية والجنائية، وبالنسبة للإعلانات

---

(٧) مقاييس الجمال عند أهالي حلب هي أن تتمتع المرأة بـ «الحسن والسمن والغمازات» بالإضافة إلى «الشامة على الخد».

بيعمل لنا اللافتات صاحبي الخطاط «عبد» بالشام، أي «عبد» أشهر خطاط بالشام ومحله ملتقى الفنانين من ياسين بقوش لعمر حمدي مالفا لأبو عنتر لنعيم حمدي الفنان العالمي اللي راح لكوريا الشمالية وغنّى باللغة الكورية الشمالية «هبي برث دي تو يو». المهم بعدما نحط الإعلانات شوف الجمهور شلون بدو يجي، وإذا ــ لا سمح الله ــ ما أجا حدا بنعمل حركة بسيطة وبنغير حرف واحد من اسم الوالدة، بدل الفاء بنحط نون، يعني بدل فيروز بيصير الاسم «نيروز»[٨]، وساعتها شوف إخواننا الأكراد شلون بدهم يحجزوا الصالة كومبليه لمدة شهرين، ما شي أخي زياد، تحياتي.. فكّر بالموضوع وبعد أسبوع بشوفك بهالمحل نفسه.. عجبني.. وخاصة أخي شيه[٩].. سلام.

---

(٨) نيروز.. هو العيد القومي للأكراد ورأس سنتهم التي تصادف يوم ٢١ آذار/ مارس.

(٩) ملاحظة لغير اللبنانيين: هو يظن أن اسم صاحب المحل شيه وكنيته أندريه ولا يعرف أنها كلمة فرنسية تعني «عند».

الفرسان الثلاثة

دخلت النادي العمالي كعادتي كل مساء لشرب البيرة والعرق مع الأصدقاء، وكانت هذه عادتنا في حلب نحن مجموعة الأدباء والفنانين، ومع دخولي كان أحد أصدقائي وهو فنان تشكيلي يعتبر نفسه سلفادور دالي بدون وجه حق جالساً مع ثلاثة شبان، ناداني، فألفيت نفسي جالساً معهم وأمامي كأس عرق. كان الشبان الثلاثة الذين لم أعرفهم من قبل يتبارون في امتداح صديقي الفنان، وكانوا يشربون نخبه كل دقيقة كأنهم في حضرة سلفادور دالي حقاً، وكنت مضطراً إلى مجاراتهم بسبب كأس العرق والمازوات التي لم تكن على البال ولا على الخاطر، ثم وجدت نفسي أمتدح صاحبنا أيضاً ولأول مرة في حياتي على الرغم من «رأيي الصعب» كما يقولون، ولكن الحديث أخذنا وكذلك العرق، فأضحى مخي ممسحة حقيقية، وأصبح رأسي حذاءً، إلّا أنني تنبهت فجأة إلى

مديحهم الزائد لسلفادور دالي وإلى غمزة ربما من واحد لآخر، فانتابني إحساس بأن الفرسان الثلاثة يسخرون منه، وأن سلفادور كان المازة الأكثر لذةً على الطاولة بالنسبة إليهم، ولأني حقير بطبعي بدأت بمجاراتهم، وصرت أمتدح سلفادور على طريقتهم، فإذا قال أحد الفرسان الثلاثة: «أنت من معالم سوريا يا سلفادور»، كنت أقول: «لأ.. أنت من معالم الشرق الأوسط». وبعد أن أنهي جملتي، أضرب كأسي بكؤوس الفرسان الثلاثة وأنا أغمزهم ونضحك.

وبرأس متثاقل مليء بالفخر والاعتزاز، نظر سلفادور إليَّ، وقال لهم: «هذا أهم شاعر في العالم». نظر الفرسان الثلاثة إليَّ مندهشين، وقال أحدهم: «لكنك لم تعرّفنا على الأستاذ؟!»، فبدأ سلفادور بتعريفنا على بعضنا البعض، وعندما سمع الفرسان الثلاثة اسمي نهضوا من على الطاولة مذهولين: وقال أحدهم: «معقول أنه أنت... ظننتك عجوزاً في السبعين»، وقال الآخر: «كانت أمنية حياتي أن ألتقي بك»، وقال الثالث: «أنت هنا في حلب ونحن نبحث عنك في باريس ولندن؟»... و ..قررت الانصراف.

وفي اليوم التالي دخلت إلى النادي العمالي مبتهجاً كعادتي، فالتقت عيناي بأعين الفرسان الثلاثة، فنهضوا من فورهم راكضين إليَّ، وجرّوني إلى طاولتهم لأجد نفسي وأنا أشرب العرق وآكل البسطرما والطوشكا، وابتدأت المدائح: «أنت شاعرنا المفضل»، «قصائدك معلّقة على جدران غرفتي»، «الحمد للّه أنك أتيت إلينا لأننا نسينا أن نأخذ رقم تليفونك»، ولكي لا أكون مسخرةً مثل صديقي سلفادور نهرتهم، وحقّرت نفسي: «مين أنا؟... أنا شاب في بداية الطريق»، ولكن أحد الفرسان ردّ عليَّ: «لا تكن متواضعاً

أنت كبير كبير»، ولكني لم أستسغ المهزلة: «شوف أنت وإياه أختك على أمه إذا بتتمسخروا... خلص شباب وما في داعي لها المسخرة..». صمت الفرسان الثلاثة بعد أن سمعوا لهجتي الحقيرة، ونظر بعضهم إلى بعض بحزن على ما أعتقد، ولكنهم سرعان ما عادوا يتلمسون طريق المدائح بهدوء ليعودوا على ما كانوا عليه ولأعود وأنهرهم وأفهمهم بأنني أخو شرموطة مثلهم ولن يستطيعوا النيل منّي.

تتالت لقاءاتي مع الفرسان الثلاثة، وظلوا يمتدحونني كالعادة، وبقيت أردعهم كالعادة، وعندما كنت أختلي بنفسي بدأ شعور غريب بالاستخفاف بنفسي يراودني، وصرت أفكر «لماذا أعتقد أنني شاعر مهم بينما الآخرون يسخرون مني»، ثم أعود وأفكر «ربما كانوا يمتدحونني حقاً». وبلهجة قوية متحدية وحقيرة جداً قلت للفرسان الثلاثة: «ماذا قرأتم لي؟!»، وفوجئت بأنهم قرأوا لي كل ما نشرت، ومع ذلك بقيت مدائحهم لغزاً، وتدمرت حياتي كشاعر حتى جاء أحد الشعراء التافهين جداً، وأسرّ لي بأن بعض الأصدقاء في دمشق ينادونه «رامبو العرب» تيمناً بالشاعر الفرنسي «آرثر رامبو»، فقلت في نفسي «إذا كان هذا التافه يظن نفسه رامبو، فلماذا لا أكون موهوماً مثله وأظن نفسي شاعراً مهماً؟!»، وبدأ مسلسل طويل من عدم الثقة بالنفس، بدأت أعيد قراءة قصائدي وأنا منهار تماماً وفي داخلي حوار يبدأ بـ «أنا شاعر تافه» وينتهي بـ «أنا أنسان أتفه». اتصلت بالناقد محمد جمال باروت، وسألته عن رأيه بقصائدي، فاستغرب بدايةً، ولكنه وأمام إصراري أجابني ممتدحاً، أغلقت السماعة وأنا غير مطمئن، لا شك بأنه يجاملني، فاتصلت بممدوح عدوان، وسألته إذا كنت متأثراً بأحد، فنفى وامتدحني، ولكني انهرت... انهرت تماماً، وقررت الإقلاع عن الكتابة والعمل مع أبي في تجارة

الأدوية، ولكنني فشلت في العمل بسبب تفكيري المستمر بكوني شخصاً موهوماً وغير موهوب وحمار.

التقيت بالفرسان الثلاثة وأنا في حال يرثى لها، وكانوا قد قرأوا قصيدة جديدة لي في جريدة «تشرين»، وبدأت سيمفونيتهم المدائحية. صمتُّ. لم أردعهم، ثم قالوا لي إنهم كانوا في مرسم سلفادور وأنه رسم لوحات رائعة جداً، فقلت لهم إن سلفادور رسام تافه، فاستنكروا بصوت واحد، وقال لي أحدهم: «هل شاهدت لوحات سلفادور؟». فوجئت بالسؤال، وانتبهت إلى أنني لا أعرف شيئاً عن لوحات سلفادور، فأجبت بشجاعة: «لا..». هنا نظر إليَّ أحد الفرسان الثلاثة بحنق: «وكيف تسمح لنفسك بوصفه بالتفاهة؟». أجبت: «هكذا يقولون، وأيضاً حديثه.. حديثه لا يعجبني». التفت الفرسان الثلاثة إليَّ بحنق، وقال أحدهم: «أنت شاعر مهمّ ولكنك شخص تافه»، ووافقه الاثنان بنظراتهم، ارتبكت. لأول مرة يخاطبني الفرسان الثلاثة بهذه اللهجة، ومرة أخرى خاطبتهم بشجاعة: «خذوني إلى مرسم سلفادور وسنرى». خرجنا بعد أن اشترى الفرسان الثلاثة ليتراً من العرق وقليلاً من المأكولات.

وصلنا إلى مرسم ومنزل سلفادور دالي. كان سلفادور جالساً ومقابله رامبو العرب وهما يسكران، عرّف رامبو العرب عن نفسه للفرسان الثلاثة، فأكدوا بأنهم يعرفونه ويقرأون له، وفجأة بدأ رامبو العرب سيمفونيته المعتادة في مدح نفسه بينما كنت أتفرج على لوحات سلفادور التي أستطيع أن أقول إنها لوحات رائعة جداً بكل بساطة، ولكن أذنيّ كانتا تتابعان سيمفونية رامبو العرب، صبّ لي أحد الفرسان كأساً، وسألني هامساً عن رأيي بلوحات سلفادور، فبادرته بالقول: «رائع جداً... جداً جداً»، وامتلأت بالنشوة عندما

رأيت أعين الفرسان الثلاثة ملتمعةً انتصاراً لسلفادور، وكانت سيمفونية رامبو العرب مستمرة.

وبتثاقله المعهود عرّف سلفادور الفرسان الثلاثة على رامبو العرب، ووصفه بأنه شاعر جيد، ولكن الفرسان الثلاثة قاطعوه بصوت واحد، وتدخّل أحدهم قائلاً: «لا يا سلفادور.. هذا شاعر تافه»، وجنّ جنون رامبو العرب وهو يستنجد بي: «قل لهم من أنا»، ولكنني صمتُّ بينما تابع الفرسان الثلاثة بهدلتهم لرامبو العرب. حاولت أن أهدئهم، ولكنهم لم يرتدعوا بل تابعوا هجومهم بعنف إلى أن خرج رامبو العرب وهو يرفس كل ما اعترض طريقه من أثاث المرسم.

صبّ لي أحد الفرسان كأساً ثانية وهو يقول: «من زمان بتعرف هادا التافه إللي راح؟!». لم أجب. نهضت وأنا أقول: «لوحاتك رائعة يا شريف». كان هذا هو اسم ذلك الفنان الرائع.. شريف محرم. خرجت وخرج معي الفرسان الثلاثة ومضينا من جديد.

نظرت بامتنان إلى الفرسان الثلاثة الذين لا أعرف شيئاً عنهم الآن، ولا أملك لهم عنواناً.

فوتبولجي

أش بدي أقلك؟!... شايفني نجم بالفوتبول موهيك؟

تاريخ مو زيادة .... لا تطلّع عليَّ هيك وتفكرني محترم وقاعد قدامك؟!

ما مرّ يوم إلّا وأكلت فيه قتله... إما من أبوي... أو من أمي... وإذا نفدنا من هالاتنين بتعلق بالشارع مع شي واحد، وهي الشغلة متل ما بعرف حظ... يا بنقتله.. يا بيقتلنا... قصة حياتي مع بتضحك وبتبكي... اسمع.

كنت أطلع ألعب فوتبول من الصبح والمسا وما كنت أشبع مشان هيك صرت أهرب من المدرسة وأروح ألعب. أرجع عند المغرب

عالبيت ثيابي موسخة وجسمي عرقان وسخن متل النار، بس ميت من الرعبة، كل يوم فيلم الرعب نفسه عند المغرب وقت دخلتي عالبيت، أنا أفتح الباب شوي شوي مشان ما حدا ينتبه وأبوي يمسكني من رقبتي وينزل فيني ضرب، وبعد شوي تجي أمي، رح تتخيّل متل ما بيصير بالمسلسلات، لأ.. هنا الوضع مختلف.. أول ما بتجي أمي تنزل فيني ضرب مباشرة مع أبوي، يعني بيصيروا اثنين عالبطل، وعلى هون بيوجعك وهون ما بيوجعك وهنن عم بيصرخوا «كم مرة قلنا لك ما بقا في لعب بالفوتبول.. آه؟!» تعال شوف على الخجلة قدام أخواتي الصغار.. كل يوم عم بآكل قتل قدامهم... نزلت من عينهم.

وبيوم من الأيام أخذت أخوي الصغير معي على الملعب.. وعينك ما تشوف القتلة اللي أكلتها من أبوي وأمي «ما بيكفي أنك صايع يا فوتبولجي... عم بتعلّم أخوك عالصياعة كمان؟!». وعلى كف من هون ورفسة من هون، على أساس أخوي كان بده يطلع عالم ذرّة لولاي، صرت أشوف القتلة أمامي، وصرت أفيق بنص الليل مرعوب من الكوابيس، بس أرجع أنام وأشوف حالي عم ألعب بفريق الحرية واسم الله عليه أفيق من النوم وأقول لحالي «العمى.. طلع منام».

بس الحياة ما بضلّ منامات وبس، إلّا ما بيتحقق شي منام، هيك كنت أقول لحالي دائماً، مع أنو منظري ما بيطمن إنو أحلامي ومناماتي رح تتحقق، أنفي عم بيشرشر وتيابي مبهدلة.. وبوط رياضي بلاستيك يسموه بحلب «أديدس أبو ريحة» لأنو بيعمل ريحة، وأحياناً بلعب حافي.. بس بصراحة.. كل اللاعبين بيتمنوا أني ألعب بفريقهم.. بيحسبوا لي حساب كبير بغض النظر عن بوطي الأديداس أبو ريحة.

ومرة من المرات كنا عم نلعب من الصبح بكّير بالملعب تبع كلية الأميركان قام إجا أبو أحمد مكتشف النجوم، ومتل ما بتعرف عنده محل موالح. كان يراقبني دائماً، وكل ما كنت حطّ كول كان يعطيني كيس فستق عبيد. المهم ما لك بالطويلة إجا أبو أحمد قال لي إمشي معي لعند المصور.. ورحنا. قال أبو أحمد للمصور «صورّي ياه صورة شخصية طالع ست نسخ عنها». قام المصور قلّه «هيك؟! بها المنظر؟!»، ورفض يصوّرني.. تخيّل.. حتى المصور ما رضي يصوّرني. قام أخذني أبو أحمد على المغسلة. غسلت وجهي وبللت شعري وسرحته. طلّعت ع حالي بالمراية.. يا سلام.. وتصوّرت.

راحت القصة.. بعد كم يوم رحت لعند المصور لأخذ الصور قام قال لي إجا أبو أحمد وأخذهم « ..العمى. ما انبسطنا بالصورة».. قلته للمصور «ما عندك لأشوفها»، قام قال قلي «وإش ده بدي أعمل فيها مفكرني أبروظها وأعلقها بالواجهة».. حملت حالي ومشيت وأنا عم فكر «طيب ليش ما يبروظها ويحطّها بالواجهة.. يعني اللي مبروظهم أحسن مني؟!».

بعد عشرة أيام وأنا وين؟!.. طبعاً عم ألعب فوتبول بملعب كلية الأميركان من الصبح قام إجا أبو أحمد وقال لي «امشي معي». قلت له «لوين؟!». قال لي: «عالملعب البلدي.. عندك مباراة.. رح تلعب مع شباب نادي الحرية ضد شباب نادي الاتحاد» طار عقلي ما صدقت حتى وصلنا عالملعب البلدي، فتنا عالمشالح قام قلت له لأبو أحمد «بس أنا ما عندي كشف بنادي الحرية.. شلون بدي ألعب؟!». قام ضحك أبو أحمد وقلّي «له كان ليش صورتك.. مو مشان أعمل لك كشف؟!». العمى شلون ما فكرت.. أعطاني كنزة

خضراء رقم ٤ وشورت أبيض وجرابات، يا سلام.. هي أول مرة بلبس جرابات ولأ.. جرابات خضر كمان.. له كان.. حرية يا عم. قلّي المدرب «شقد نمرة رجلك وْلك؟! قلت له أربعين قام أعطاني بوط أديداس أصلي.. له كان هادا فريق شباب الحرية.. ما بيصير يلبسوا أديداس أبو ريحة، تطلعت ع اللاعبين زملائي ما عرفت حدا منهم غير عبد اللطيف.. وطلع أبو أحمد جايبه بالطريقة نفسها، قال لي أبو أحمد «انت بدك تلعب قلب هجوم.. ديروا بالكم.. جمهور الاتحاد الكبير ديروا بالكم.. جمهور الحرية الكبير ويسبوا على فريق الحلاية أول ما تنزلوا.. لا تخافوا والعبو منيح لأنو مدرّب منتخب شباب سورية «إبراهيموف» موجود بالمدرجات.. وبدو يختار لاعبين لمنتخب شباب سورية.. وانشاء اللّه يختارك أنت وعبد اللطيف». قلبي صار يدق.. نزلنا ع الملعب.. مع أنها مباراة شباب كان الملعب مليان.. أربعين ألف متفرج.. تلاتين ألف جمهور الاتحاد.. وعشرة آلاف حرية.. قلبي نزل لتحت.. صار ببوط الأديداس الأصلي طبعاً. العمى على هالعلقة.. شلون بدي ألعب وأنا ميت من الرعبة.. يا لطيف.. تلاتين ألف عم بيصيحوا بصوت واحد: «أختك على أمك حرية بالطول بالعرض حرية تحت الأرض.. حرية وينو وينو.. الأهلي «١» قالع عينه».

بحياتي عم بتسب بها التنظيم هاد.. يعني الكل بصوت واحد.. سيمفونية.. لا أعصاب. فلتت. تلاتين ألف.. أختك على أمك حرية. أعلام حمر على طول الملعب وعرضه. مدرب المنتخب السيد إبراهيموف قاعد. ملعب حشيش.. شبك ورا الكول.. طابة أديداس.. بوط أديداس.. حكم للساحة... حكمين للتماس.. التسلل محسوب.. مو متل ملعب بحارتنا.. فتت لعبت.. يعني على أبو جنب.. وصفّر الحكم وبلّشت اللعبة.

وأنا ما بعرف حدا من فريقنا غير عبد اللطيف.. أنا قلب دفاع وهو قلب هجوم، وكنت أصرخ بزملائي مشان يرجّعوا لي الطابة «ارجع لوَرا أبو الشباب.. افتح باص معلم.. لحقه أستاذ اكسره روحي» ما بعرف أسماءهم.. دخل قلب هجومهم لمنطقتي.. اتزحلقت عالطابة وأخذتها.. مشيت بالطابة وراوغت أول واحد.. والثاني.. اتحمست.. ركضت بالطابة.. راوغت التالت ومرقت بالرابع.. وصحت بعبد اللطيف فوت ورا الطابة بسرعة.. ورميت الطابة بين اللاعبين دخل عليها عبد اللطيف وأخدها.. وراوغ حارس المرمى.. كووووول للحرية، ركض عبد اللطيف لعند جمهورنا وركضت ورا.. وركضوا زملاؤنا.. تعانقنا.. وكانوا زملاؤنا عم بيقولوا «حلوة يا معلم.. برافو أبو الشباب..» بعدين ونحن وعم نتعانق قال لي قلب الدفاع الستوبر زميلي «ممكن نتعرف؟!» وكان جمهورنا عم بيصيح حرية حرية لأول مرة سكت جمهور الاتحاد أو الأهلي متل ما بيقولوا له.

بعد شوي بلش الضغط عالمرمى تبعنا وصارت الطابات تجينا متل الكذب وأنا أبعدها.. رجلي براسي.. بصدري.. صرت فدائي استشرست.. لو كان في مذيع كان قال عني «صخرة الدفاع»، شوطين كاملين وأنا عم أحمي منطقتنا لحالي وخلصت المباراة وربحنا «١ــ٠»، طبعاً في بعد مباراتنا مباراة الرجال، بس الإدارة ما خلّونا نتفرج عليها مشان ما حدا يضربنا من الجمهور.. طلعنا بباص الفريق، وتحت شعار يللي بيحب النبي يخلي، مشي الباص، وفجأة صارت الأحجار تجينا يمين شمال.. الشوفير صار يسرع.. والأحجار عم تكسّر الشبابيك.. المدرب صاح: «نزلوا رؤوسكم لتحت».. قذائف.. رفعت راسي لشوف مين عم يضرب الحجر قام أجت حجرة بنص راسي، وعلى المستشفى.. ربطوا لي راسي متل اللاعبين الأجانب، وإجا أبو أحمد.. أعطاني ألف ليرة إلي وألف لعبد

اللطيف مكافأة. رجّعني ع البيت مشان أبوي ما يضربني.. وأول ما شافني أبوي طالعت الألف ليرة وأعطيته إياها قام انبسط وقال لأمي «اشعلي له الحمّام» وتحممت.. أول مرة بتحمم بعد المباراة. إجوا أخواتي وقالوا لي «شفنا المباراة» وحكوا لأبوي وأمي شلون لعبت أحسن لعب، ونمت أحلى نومة وشفت حالي بالمنام عم ألعب مع منتخب شباب سورية، فقت الصبح قام شفت أمي جايبة الفطور لعندي وقالت لي «قوم افطر روحي»، بعد شوي إجا أبو أحمد وقال لي: «مبروك.. بدهم ياخدوك عالمنتخب»، ورحنا عالمنتخب أنا وعبد اللطيف، وحطّوني قلب دفاع.. لبروا.. يعني حرّ وبدّعنا بالتصفيات مع أننا ما كنا مزوّرين (٢) ما عدا واحد قد أبوي عم يلعب بجمبي ستوبر وطلعنا على كأس العالم للشباب بالدمام سنة ١٩٨٨ ولعبنا أحلى لعب ضد كوستاريكا والاتحاد السوفياتي قبل ما يحللوا وكتبوا عنا الجرايد وعملوا معنا مقابلات على التليفزيون وأنا بالذات كتبوا فيني توصية مشان يديروا بالهن عليَّ. عنا طبعاً جماعتنا توصّوا.. ما بدهم مين يقلهم.. أي لو «مادونا» بيجي لهون بيحطوا ع الاحتياط وبيربوا، ألنو عنا بيحبوا اللاعب المربى، رجعنا على سورية ونمنا بالفندق بالشام وتاني يوم أخدونا قال في مسؤول كتير كبير بدّوا يقابلنا، قعدنا حول المسؤول وبلش يمدحنا وأنا كنت عم بتذكر شلون أبوي يضربني وأمي بتنزل فيني بالشحاطة، وشلون كان أنفي عم بيشرشر وتيابي وسخة، وشلون كنت ألعب حافي وببوط الأديداس أبو ريحة.. فجأة سأل المسؤول «مين علي؟!».. العمى.. سأل عني.. خفت.. ليكون عملت شي بكأس العالم.. المدرب أشّر عليَّ.. قام المسؤول ومدّ إيدو.. فكرتو بدّو يضربني كف.. قام حطّ إيدو على كتفي وقال: «برافو عليك يا علي.. رفعت راس الوطن». تنفست.. طلّعت فيه وقلت لحالي.. آخ.. آخ.. لو تعرف حقيقتي.

سينما فؤاد
سينما الزهراء

بعضهم يقول إن اسمها سينما فؤاد، والبعض الآخر يؤكد أن اسمها سينما الزهراء، حتى صاحب السينما نفسه سليم سبتي قال لي إن اسمها سينما فؤاد، لكن ابنه بدوان قال: سينما الزهراء. وعندما تستمع جيداً ستتأكد أنها كانت سينما فؤاد في الخمسينيات وسينما الزهراء في السبعينيات نظراً لكون الجيل القديم يصرّ على اسم فؤاد بمن فيهم صاحب السينما بينما يصرّ الجيل الجديد على اسم الزهراء بمن فيهم ابن صاحب السينما.

ولكن هناك معلومة أخرى تفيد بأن سينما فؤاد هو اسم السينما الشتوية بينما سينما الزهراء هي السينما الصيفية بينما يقول آخرون إن السينما التي أنشأها جليل قره زيوان قرب صوامع الحبوب «الميرا» هي سينما فؤاد وأن السينما التي أسسها شكري مرجة قرب البلدية

هي سينما الزهراء، وقد شارك فيها سليم سبتي ونقلها إلى فناء منزله في السبعينيات لتصبح السينما الصيفية الوحيدة هناك.. في الدرباسية، تلك البلدة الشمالية التي لا يفصلها عن تركيا سوى حديد القطار.

في البداية شارك سليم سبتي عائلة لوله، وهم أصحاب سينما فؤاد في القامشلي ومن ثم استقل بنفسه واستعار من بلدة عامودة القريبة رجل التشغيل «قيا» كي يشغل الأفلام بعد أن احترقت سينما عامودة في عرض سينمائي للأطفال مات معظمهم اختناقاً واحتراقاً، وتحركت السينما في الدرباسية بين عامي ١٩٥٤ و١٩٥٨ أي إنها توقفت عام ١٩٥٨ مع بزوغ شمس الوحدة، وظلت السينما مهجورة لتعود بقوة عام ١٩٧٠ وتستمر حتى عام ١٩٧٨ مفسحة المجال لجهاز التلفزيون الذي أصبح متوفراً في بعض البيوت، وأضحى الذهاب إلى السينما غير ضروري بالنسبة إلى معظم عائلات الدرباسية.

كنت في الرابعة من عمري عندما دخلت السينما للمرة الأولى، وشاهدت فيلماً حربياً عن بطولات الشعب الجزائري قالوا لي فيما بعد أنه فيلم «جميلة بوحيرد»، وتأكدت من ذلك عندما سميت المدرسة الابتدائية في الدرباسية على اسم البطلة بعد عرض الفيلم مباشرة ليبدأ فصل من عصر السينما في ذلك المكان البعيد والبهيج والموحش.

كانت سينما الزهراء الصيفية كما يسميها أبناء جيلي مكونة من جدار كبير دهن باللون الأبيض ليكون الشاشة الأولى التي أدمنّا التسمر أمامها، ومن مدرج اسمنتي مقسم إلى قسمين: رعاع

وعائلات، وكنا نفضل الجلوس في قسم الرعاع بعيداً عن أهالينا الجالسين في قسم العائلات أو «اللوج» كما تسميه مصطلحات سليم السينمائية، وكان هناك منزلان خلف المدرج مباشرة، أحدهما لصاحب السينما نفسه ويتم استخدام سطحه في أوقات الزحام الشديد لكي تجلس العائلات عليه وتشاهد الفيلم. أما السطح الآخر، فكان صاحبه يؤجره للرعاع كي يشاهدوا الفيلم من عليه بربع التسعيرة النظامية.

وبعد أن تعلم يوسف برجس تفاصيل تشغيل الفيلم السينمائي من «قيا» أصبح الآمر الناهي في تلك الغرفة الصغيرة، فهو صاحب القرار النهائي في توقيت عرض الفيلم وإطفاء الأنوار حتى لو كان هناك بعض الرعاع المتأخرين أمام الباب، وكان هذا الأمر يسبب بعض المشاكل الصغيرة لصاحب السينما الجالس على الصندوق أمام باب السينما، فقد كانت النقود التي تدفع في لحظات إطفاء الأنوار إما تركية أو قطعاً معدنية بحجم الربع ليرة لا قيمة لها أبداً.

وعلى الرغم من أن يوسف هو الآمر الناهي، فإن حمادة كان نجم السينما في ذلك المكان ومعبود النساء والمراهقين، وحمادة هو المسؤول عن تعليق الصور والإعلانات، وهو الذي يقف أمام الباب لإدخال الجمهور، وهو الذي يظهر في الحملات الإعلانية للأفلام.

يذهب حمادة إلى القامشلي لجلب الفيلم المتفق عليه.

وهناك يشاهد الفيلم ويتأخر يومين قبل القدوم إلى الدرباسية ومعه الفيلم الجديد، وسبب تأخره هو أنه بعد مشاهدة الفيلم يذهب إلى الحلاق ويصنع لنفسه تسريحة مطابقة تماماً لتسريحة البطل،

ويشذب شاربيه كشاربي البطل، فإذا كان البطل دون شوارب يحلق شواربه أيضاً، ثم يذهب إلى الخياط ويفصّل لنفسه طقماً كطقم البطل تماماً ويشتري من الباله قميصاً مطابقاً لقميص البطل، وإذا اضطره الأمر إلى شراء خواتم أو سلاسل شبه ذهبية، فإنه يفعل ذلك، ويعود إلينا نسخة مطابقة مائة بالمائة لشامي كابور أو دارا مندارا أو بروس لي أو فريد شوقي أو جوليانو جيما... إلخ من قائمة نجوم تلك الأيام. وفور عودته إلى الدرباسية يجهّز نفسه ويظهر في حملته الإعلانية الأولى التي تستهدف شوارع الدرباسية عصراً.

عادة في عصر كل يوم تجلس نساء الدرباسية أمام أبواب بيوتهن على كراسي القش الصغيرة لشرب الشاي وتبادل آخر الأخبار المحلية، أي الدسائس والنمائم. وفي غمرة انهماك النسوة بتحليل آخر دسيسة يظهر حمادة، فتتوقف قلوب النساء عن الخفقان، وترتجف كؤوس الشاي في أيدي الفتيات المراهقات.

يمشي حمادة بثياب البطل الجديد وتسريحته وحذائه وهو يفتعل حركات معينة ويثبت لثانيتين مشكلاً «بوزاً» ذا وقع خرافي على قلوب العذارى، ويمشي خلفه ثلاثة أشخاص: عبودة حارس مرمى الدرباسية الذي يحمل طبلاً وينادي، وسراج ونصرت اللذان يحملان لافتة كبيرة عليها بوستر الفيلم وصور منه، فإذا كانت الفتيات الجالسات أمام أبواب بيوتهن جميلات، فإن حمادة كان يبطىء من حركته بشكل رهيب وهو يتلفت بخيلاء الطاووس يميناً وشمالاً، مما يضطر مَن ورائه إلى إبطاء حركتهم أيضاً وكذلك النداء فينادي عبودة على البطيء: «سينما... الـ ..ز ..هـ ..راء.. تقدم.. أح ..سن.. فيلم.. ف ..ي الـ ..عالم.. الزهرة... والح..جر.. لا تدعوا.. الفر ...صة... تفو... تكم...».

أما إذا كانت الفتيات من النوع العادي، فإن سرعة حمادة كانت تصبح عادية، وكان النداء خلفه يصبح عادياً أيضاً.

وفي حال وجود فتيات بشعات، فإن حمادة كان يتخلى عن وقاره ويركض مسرعاً كأنه عدّاء، ويختفي في أول شارع يميناً أو يساراً وخلفه رجال إعلامه الثلاثة وصوت عبودة اللاهث وهو يصرخ: «سينما الزهراء تقدم أحسن فيلم في العالم الزهرة والحجر لا تدعوا الفرصة تفوتكم».

ومن تقاليد الحملة الإعلانية أن يتوقف حاملا البوستر لإتاحة الفرصة للنسوة كي يتفرجن على الصور بينما يقف حمادة بعيداً عنهما منتظراً انتهاء النسوة من فرجتهن وتعليقاتهن على الصور، وإذا حدث وكانت هناك صور خليعة، فإن وجهي حاملي اللافتة يمتلئان ببصاق النسوة الغاضبات مع عبارات من قبيل «انقلعا من هنا... قلة أدب... حيوانات... أولاد قحبة... إلخ». وكان ممنوعاً على حاملي اللافتة إبداء أي ردة فعل بل الاكتفاء بالانصياع الكامل لحالات الجماهير في أوقات الدوام الرسمي... لأن الشغل شغل، وهكذا كان حاملا اللافتة يعودان في الصباح في جولة رد اعتبار شخصية خارج أوقات الدوام الإعلاني وهما يشتمان كل من بصق عليهما وشتمهما في عصر اليوم الفائت «أنا ابن قحبة يا بنت المليون شرموطة... سأجعل شامي كابور يضع عضوه في فرجك يا عاهرة... لو لم يفعل فريد شوقي كذا وكذا بأمك ما كنتِ بصقت علينا... إلخ».

وكان آباء وأزواج تلك النسوة والفتيات يتقبلون هذه المعارك لأن البادىء أظلم وهم قوم عادلون.

وقبل الغروب بنصف ساعة يبدأ الغليان لأن الفيلم يبدأ بعد الغروب مباشرة، فالسينما بلا سقف، ويبدأ الجمهور بالدخول إلى السينما، العائلات على الدرجات الثلاث الأخيرة وباقي الصالة للرعاع. وما إن تمتلىء الدرجات الثلاث حتى يبدأ سليمو باستخدام سطح منزله للعائلات الطارئة التي لم تحجز مسبقاً. كنا ندخل بنصف ليرة، كما كان يمكن أن ندخل بأنواع أخرى من العملات مثل البيض والدجاج والديكة الرومية والبط والخراف حتى، فهذا يدخل إلى السينما بخمس بيضات بلدية سرقها من تحت إحدى الدجاجات الرومانسيات، وذاك وقد حمل بطيختين مسروقتين من بساتين القابلة غير القانونية عالية، وآخر يدخل بقطعة قماش جوخ إنكليزي أصلي هو وأربعة من أصدقائه بعد أن استغنى عن تفصيل طقم جديد للعيد، ومختار قرية «كربتلي» يدخل ثلاثين فقيراً إلى السينما بخاروف العيد الذي كان سيذبحه ويوزعه عليهم أنفسهم، ولكنهم أقنعوه بأن إدخالهم إلى السينما هو زكاة أيضاً على الرغم من أن الصوفي «غريبو» لم يفتِ في هذا الأمر إطلاقاً، ولكنه عاد وحلّل ذلك بعد أن حضر أحد الأفلام الأميركية التي يظهر فيها بابا نويل ذو اللحية البيضاء التي تشبه لحيته. وكم كان مزهواً بنفسه عندما صرخ الجمهور بصوت واحد: «صوفي غريبو» وهم يشيرون إلى بابا نويل الأميركي. لذلك كان طبيعياً أن تختلط أصوات الدجاج والديكة والخواريف وهي تتراكض أمام الجمهور في فناء السينما الواسع وسط محاولات حمادة اليائسة في إعادتها إلى الركن المخصص لها ألا وهو حظيرة السينما.

وما إن يبدأ الفيلم حتى تتعالى الصرخات بعد أن يكون حمادة قد ألقى كلمته الشهيرة قبل كل عرض «الرجاء عدم إطلاق النار على الشاشة لأن الأشرار لن يموتوا حتى لو أطلقنا المدافع عليهم». ونفهم

من كلمته أن إطلاق النار مسموح على أهداف أخرى غير الشاشة، وبالطبع فإن الجمهور لا يرتدع بل ولا يفهم ما قاله حمادة لأنهم سرعان ما يشهرون بنادقهم ومسدساتهم عند كل ظهور لعدو البطل، وقد أصيب توفيق الدقن وحده بأكثر من ألفي طلقة عن مجمل أفلامه. أما عادل أدهم، فقد أصيب بحوالى الألف وخمسمائة طلقة، وكذلك الأمر بالنسبة لأعداء بروس لي وشامي كابور ودارا منددارا وجوليانو جيما. ومن الغريب أن بروس لي أصيب عدة مرات بعد أن خربطوا بينه وبين عدوه الشرير «كون الصينيين يشبه بعضهم بعضاً إلى درجة رهيبة» كما صرح واحد ممن أطلقوا عليه النار بعد أن سمع أحدهم يصرخ فيه منبهاً: «هذا بروس لي يا حمار»، وحدث أن أصيبت ناديا لطفي في فيلم «أبي فوق الشجرة» بطلقٍ ناري من مسدس أحد المهووسين بميرفت أمين، كما أصيب عبد السلام النابلسي خطأ بعد أن ظنه أحدهم شريراً وعدواً لعبد الحليم حافظ، وكان طبيعياً أن تكون هناك ورشة عمل صباحاً لترميم الشاشة وإعادة طلائها من جديد.

ولا يعدم قليلو النقود الحيلة، فهم يحجزون أماكنهم بعشرة قروش فقط على سطح أوسمانو المطل على الشاشة، وعادة ما يمتلىء هذا السطح قبل أن يدخل أول شخص إلى الصالة بشكل رسمي، وبعد بداية الفيلم يمكن لأي عابر أن يلمح أربعة طوابير واقفة بانتظام، وبعد مرور ربع ساعة من بداية الفيلم يدخل الطابور الأول، وهم الذين دفعوا خمسة وثلاثين قرشاً فقط، وبعد مرور نصف ساعة يدخل الذين دفعوا ربع ليرة فقط وعند انتصاف الفيلم، يدخل الذين دفعوا خمسة عشرة قرشاً فقط. وقبل نهاية الفيلم بربع ساعة يدخل الطابور الأخير ومعظمهم من الأطفال الأبرياء وقد دفعوا خمسة قروش فقط لا غير. وفي اليوم التالي يعود من شاهد النصف

الأول من الفيلم لمشاهدة النصف الثاني من وشاهد ربعه الأخير لمشاهدة ربعه الأول، وهكذا فإن هناك أشخاصاً يجب أن يخرجوا من السينما في أوقات محددة حسب النقود التي دفعوها. وكان حمادة يحفظ وجوههم غيباً ويبحث عنهم أثناء عرض الفيلم بواسطة بيل يدوي يوجّهه إلى وجوه المشاهدين المتذمرين حتى يقبض على الجاني ويرميه خارجاً بدون رحمة. وعادة ما كان الجمهور النظامي يدل على الخارجين على القانون كي يتفرجوا على الفيلم بدون إزعاجات. وحدث مرة أن امتلأ سطح أوسمانو بالجماهير بينما بقيت السينما خالية تماماً، فقرر يوسف أن لا يعرض الفيلم خاصة وأن صندوق السينما لم يدخله قرش واحد، ولكن سليمو رفض ذلك، وأمر بتشغيل الفيلم لأن الجمهور جمهور حتى لو دفع نقوده للجيران، وكان هذا أول تأسيس تقليد يقضي بعرض الفيلم في وقته المحدد حتى ولو لم يكن هناك جمهور.

ومع ذلك فقد تمَّ اختراق هذا التقليد عدة مرات، فكان عرض الفيلم يتأخر في المرات التي يحجز فيها العرض كاملاً لإحدى القرى. فقد كان مختار القرية يأتي ويقف أمام باب السينما ويدخل رعاياه بعد التأكد من وجوههم واحداً واحداً، وكنا نحاول الدخول ونحن نرتدي الجلابيات كي نشبه أهالي القرية، ولكن هيهات، فالمختار اللعين كان يكشف أشكالنا ويميزها عن رعاياه ويطردنا بعد أن يناولنا ما تيسّر من صفعات وركلات وبصقات. وكان المختار لا يسمح بعرض الفيلم حتى يكتمل نصاب رعاياه الذين يتأخر بعضهم بسبب قدومهم سيراً على الأقدام، أما الذين يأتون بالشاحنات، فهم يصلون في موعدهم، ويصل بعضهم، القادمون في العربات التي تجرّها البغال أو الحمير، وكذلك الذين يمتطون الحمير شخصياً، ويصبح شارع السينما مرآباً لسيارات البيك آب والعربات والبغال

والحمير، ويكون أمر حراستها مناطاً بعمال السينما الذين يعيشون على أعصابهم حتى نهاية الفيلم خوفاً من هرب حمار ما أو سرقته. أما المختار، فيخرج دفتره، ويبدأ بتفقد رعاياه الجالسين على المدرجات فيذيع الاسم، ويرد عليه صاحب الاسم فخوراً وهو يرفع يده «حاضر».. ثم يبدأ الفيلم القروي.

ومع كل فيلم تبدأ رحلة حمادة في النجومية، فهو شبيه البطل، أي أنه بطلنا المتوفر، فإذا كان الفيلم عاطفياً، فهو نجم الفتيات ومثَل المراهقين الأعلى في الملابس والتسريحة، وإذا كان فيلماً من أفلام الكاراتيه، فهو بطلنا نحن الرعاع. كانت رسائل الإعجاب تصله من تحت باب بيته وهي معطرة وعليها ختم بأحمر الشفاه وتوقيع واحد موحد هو (المتيمة المجهولة والعاشقة الخفية)، بينما كنا نعبّر عن إعجابنا به بالركض خلفه ونحن نصرخ (حمادة حمادة) فينفش ريشه، ويمشي متبختراً إلى أن يضجر منا، فيضطر إلى تجريب عدة حركات من الكاراتيه في أجسادنا الصغيرة، فنتفرق حزانى مما فعله بنا بطلنا المحبوب الذي كنا نشجّعه مع كل قبلة لعبد الحليم حافظ على شفاه ميرفت أمين ونحن نصرخ (طيبة حمادة) كأنه هو الذي يقبّلها، وكنا نعدّ القبل في فيلم «أبي فوق الشجرة» بصوت واحد عالٍ جداً: واحد.. اثنان.. خمسة وعشرين.. تسعة وتسعين.. حتى ضاقت العائلات ذرعاً بنا، فاضطر يوسف إلى قصّ أكثر من خمسين قبلة تجنباً للفوضى، ولكن الجمهور اكتشف الخديعة، فرضخ يوسف لضغط الجمهور، وأعاد القبل المقصوصة في اليوم التالي وسط صوت الجمهور الهادر.. مائة وعشرة.. مائة وخمسة عشر.. إلخ من قبل «أبي فوق الشجرة».

مضى زمن طويل قبل أن أعود إلى سينما الدرباسية لأجدها

مهجورة. يوسف الآمر الناهي يبحث عن عمل جديد دون جدوى، وحمادة نجم النجوم يعمل عتالاً في (الميرا)، بعد أن انقطعت الرسائل عنه وأضحى مروره في أي شارع عادياً وغير لافت لأي انتباه. مضى الزمن ولم يبقَ من السينما سوى شاشتها البيضاء المحتفظة بثقوب أحدثتها الرصاصات التي أطلقت على محمود المليجي في آخر عرض قدمته سينما الزهراء قبل أن تغلق أبوابها نهائياً وتصدم عشاقها بما يشبه الصدمة العاطفية، وخاصة المزارع «بشارو» الذي كان يشتري لكل فيلم دفتراً كاملاً من البطاقات ليوزعها على المفلسين من محبي السينما. وكان بشارو ينزعج عندما يتلقى بطل الفيلم أية ضربة أو لَكْمة من أعدائه ويخرج من السينما حرداناً وهو يقول: لقد أفسدتم الفيلم، فيلحق به حمادة مؤكداً أن البطل سينتصر في النهاية، لكن دون جدوى.

أما بائع الشعيْبيّات تلك الحلوى اللذيذة «نهيتّو»، فكان مصدوماً هو الآخر، كان عاشقاً متيّماً بـ «شامي كابور»، وكنّا نتملّقه، ونقول له: «ياوو نهيتّو.. صوتك أجمل من صوت شامي كابور وأنت أكثر وسامةً منه أصلاً»، فيوزّع الحلوى علينا مجاناً بحركة سينمائية شاميكابورية خالصة.

مضى زمن طويل قبل أن أقف أمام الشاشة العظيمة المنهكة وأنا أسترجع خروجنا ونحن نبكي بعد الفيلم العاطفي، أو ونحن نتعارك بعد فيلم الكاراتيه.

مضى زمن طويل قبل أن نعرف أن عشرات الأشخاص من القرى التركية بترت أقدامهم وهم يجتازون حقول الألغام الحدودية من أجل حضور فيلم لشامي كابور، مضى زمن طويل قبل أن أدير

ظهري لشاشة البهجة التي ما زالت أرواح الأبطال الأشرار تئن داخلها بسبب آلاف الطلقات التي اخترقت أجسادها، مضى زمن طويل وما زال أهالي الدرباسية مختلفين هل كان اسمها سينما فؤاد أم سينما الزهراء.

أُمّة فيروز

إلى فيروز في يوم ميلادها

ذات يوم خريفي من عام ١٩٨٥ قررنا عدم الذهاب ـ نحن الممثلين في المسرح الجامعي بحلب ـ إلى تدمر كي نقوم بأداء أدوارنا ككومبارس في فيلم «وقائع العالم المقبل» للمخرج سمير ذكرى إلّا إذا وفّرت لنا إدارة الجامعة الفرصة لحضور حفلة فيروز على مدرج بصرى قبل موعد التصوير بيوم واحد. كانت تدمر وما زالت تقع وسط سورية تماماً بينما تقع بصرى جنوب سورية، لذلك كان علينا بعد حضور حفلة فيروز الانطلاق ليلاً باتجاه تدمر كي نؤدي دور الجمهور الذي يحضر حفلاً لموسيقي سوري يعاني من البيروقراطية وتعنت المسؤولين. ونجح اعتصامنا غير المعلن، بل واستطاعت إدارة جامعة حلب الحصول على بطاقات خاصة بنا لحضور الحفلة. ونظراً

للفائض في البطاقات قررنا دعوة زملائنا الأدباء في الملتقى الأدبي ليذهبوا معنا، وكنت وقتها أنتمي إلى الطرفين معاً، وانطلق باصنا المجيد باتجاه دمشق.

وكالعادة بدأت الانقسامات فور صعودنا، فجماعة الملتقى الأدبي اتخذت المقاعد الخلفية ملاذاً لها بعيداً عن الأضواء التي يسعى إليها الممثلون الذين احتلوا المقاعد الأمامية، وبدأ الممثلون بالتهريج وإطلاق النكات بينما كان الأدباء يرددون الأغاني الملتزمة بوقار شديد. فاختلطت الأصوات ببعضها البعض، ودخلت النكات بقوة كفواصل في قلب الأغنية الواحدة، فكنا نسمع «واحد أحول طلق زوجة أخيه» على خلفية أغنية حزينة عن الشهيد لسميح شقير تقول كلماتها «رجع الخي يا عين لا تدمعي له» أو نكتة عن «خمسة يمنيين سموا أنفسهم الفرسان الثلاثة» على أنغام أغنية لمارسيل خليفة «جينا ع الدار جيناكي.. يمن الأحرار جيناكي»، وما بين التزام الأدباء وميعة الممثلين كنت عصفوراً طائراً بين الفريقين تشدني نظرة صارمة من أحد الأدباء إلى فريق الأدب وتأخذني ابتسامة عاتبة من إحدى الممثلات إلى فريق الممثلين، لكنني كنت في باص كالجميع محدداً لنفسي اتجاهاً جعرافياً واحداً هو.. فيروز.

وصلنا إلى جامعة دمشق ظهراً، وهناك طلب البعض منا أن نبيعه بطاقاتنا، ولكننا رفضنا بشمم وإباء رغم المبالغ الهائلة التي دفعوها لنا، لكن صديقي الممثل وديع عمسيح باع بطاقته بألفي ليرة «خمسمائة دولار» وقتها، وقال لي: «ستكون هناك فوضى وسيدخل الناس دون بطاقات».

وصلنا إلى بصرى مساء، ودخل باصنا الجليل إلى المنطقة المحيطة

بالمدرج فوجدنا أمّة فيروز كلها بانتظارنا: آلاف وآلاف البشر من كل الأصناف، ضباط ومسؤولون وطلبة وأغنياء وفقراء ورجال ونساء وأطفال وشيوخ ورُضّع وبائعو مرطبات وحلويات وموالح وساندويتش و.. و.. نظر إليَّ وديع مبتسماً وهو يهدىء من روع نفسه «أرأيت.. سيُدخلون الناس بدون بطاقات». قلت له أنا الصامد الذي رفض بيع بطاقته «بالعكس.. لن يدخل أحد دون بطاقة لأن المدرج لن يتسع لكل هذه الأمة»، ارتعد وديع من نظريتي واصفر وجهه من فكرة عدم حضور حفلة فيروز، تابعت بسادية، «لقد وضعوا مكبرات صوت في الخارج كي يستمع الذين لا يملكون البطاقات من خارج المدرج».

امتقع لون وديع ونشف ريقه وهو ينظر إليَّ برعب. أخرجت بطاقتي من جيبي وتلمستها بحنان. نظر وديع إلى بطاقتي وبلع ريقه كجائع يقف أمام باب المطعم.

وقف عناصر حفظ النظام أمام الباب الذي فُتح لتوه وبدأوا بتنظيم عملية دخول أمة فيروز، كل بطاقته في يمينه، وطفرت دمعة من عين وديع اليمنى وهو يلاحقني كظلي.

التحق بي صديقنا السوداني منتصر والممثلة لبابة يونس وشقيقتها سراب. قالت لبابة «اجمعوا بعضكم». وجمعنا بعضنا واتجهنا نحو الباب وكان وديع يدحش نفسه بيننا ممنياً نفسه بدخول جماعي لجماعة المسرح الجامعي.

كان أصحاب البطاقات يقفون ممسكين بطاقاتهم بقوة كالهررة الممسكة بفخذ فروج مشوي وسط نظرات الحسد والحسرة من باقي

أمة فيروز التي بلا بطاقات، قال لي وديع متحسراً «ندمان يا لقمان.. والله ندمان» ابتسمت بشماتة وقلت له «تحتاج إلى ثورة كي يتم الدخول من دون بطاقات».. ثورة!!.. فكّر وديع في الأمر ونظر إلى الحشود التي بلا بطاقات نظرة متأملة ذات مغزى، حزرتُ بماذا يفكر فأردفت «ولكن الثورة بحاجة إلى رجال.. وإلى قائد أيضاً»، نظر إليَّ وديع باهتمام وتابعنا مسيرتنا باتجاه الباب.

وعلى الرغم من الازدحام فإن رجال حفظ النظام كانوا يتعاملون بصرامة مع مجرد أن يفكر أحدهم بالدخول دون بطاقة، ولكن كان لأمة فيروز رأي آخر، فقد اندلعت الثورة فجأة، ثورة الفقراء، هم ليسوا بفقراء بدليل أن وديع يملك خمسمائة دولار في جيبه ـ ولكنهم فقراء فيروز ـ ثورة الذين بلا بطاقات. نظرت إلى جانبي فلم أجد وديعاً، بحثت عنه بين مجموعة المسرح ولكن لا أثر له.. اختفى، اقتربت حشود الثوار منا.. خبأت بطاقتي في جيبي خوفاً من أعمال النهب التي ترافق الثورات عادة، نظرت بهلع إلى رجالات الثورة فوجدت وديعاً يتقدمهم كذئب جريح وهم يرددون خلفه شعاراً واحداً فقط «عليهم يا شباب».

صرخ بنا «عثمان عثمان» أن نتفرق كي لا نضيع وسط الفوضى، فأمسكنا بأيدي بعضنا البعض ونحن نتلقى الضربات من هنا وهناك، ولكننا قبلنا بالأمر الواقع ونحن نرى حال الوزراء وهم يتدافعون بشراسة دون مرافقيهم الذين هرعوا باتجاه البوابة تاركين أسيادهم لمصيرهم المجهول.

حاول رجال حفظ النظام إيقاف وديع وثورته ولكنهم فشلوا أمام الشعار الحماسي اللاهب ألا وهو «عليهم يا شباب» والذي كان

يصدر من الأمة الثائرة على شكل حشرجة جماعية لا على شكل هتاف. وبسرعة لا متناهية امتدت ثورة البطاقات ودخلت أمة فيروز كلها في الثورة بعد أن رمينا البطاقات وانجرفنا مع التيار الثوري ونحن نردد شعار الثورة العظيم «عليهم يا شبااااب».

تراكضنا على الدرج الأثري ونحن نبحث عن مكان استراتيجي نجلس فيه، بينما حظي رجالات الثورة ومن بينهم وديع بأقرب الأماكن وأفضلها، وعاد رجال حفظ النظام إلى عملهم المعتاد بمساعدة الثوار أنفسهم لتنظيم عمليات جلوس الأمة، وجلسنا أخيراً لبابة وسراب وأحمد جمالي ومحمود الخطيب وأنا بجانب بعضنا البعض بانتظار الملائكة.

أغلقت الأبواب ودخل أكثر من ثلاثين ألف شخص إلى المدرج الذي لا يتسع لأكثر من خمسة عشر ألفاً، بينما بقي في الخارج ثمانون ألفاً من أمة فيروز اللامتناهية العدد مكتفين بسماع صوتها من المكبرات الخارجية، تأخرت فيروز.. مرت ساعة ولم تظهر فيروز، لكن أحداً لم يتأفف، كانوا جميعاً راضين وسعداء، وكان العميد المسؤول عن التنظيم يتمشى مسروراً في أنحاء المدرج وهو يراقب جماهير السعادة بعين الرضا، ويمرّ بين رجاله.. رجال حفظ النظام الذين قهرتهم الثورة قبل ساعة ويرمقهم ـ مع ذلك ـ بفخر واعتزاز.

ساعتان بالتمام والكمال والجماهير تنتظر على المدرجات، على الأرض، على فواصل المشاة، تحت البيانو، بين العازفين، خلف المايسترو سليم سحاب ـ كم أعجبنا به يومها ـ وفيروز لم تظهر بعد. كان أعضاء الفرقة ينتظرون فيروز معنا، وكانوا يتفقون مع الجمهور الذي يجلس بينهم على المساحات اللازمة لكل عازف كي

يعزف، فقد كانت الفرقة تحتل الأرض التي تحت المسرح مباشرة، وكان بين العازف والعازف أكثر من عشرة متفرجين، أما البيانو فقد جلس تحته أكثر من عشرين شخصاً بالانتظار.

وظهرَتْ.. بيضاء، بيضاء.. بيضاء.. لا ينقصها شيء كي تكتمل، لكن لا شيء يكملها، سرّ من الكمال، سرّ من النقصان، بياض رهيب.. مخيف.. حنون.. جمال لا متناهٍ أمامي، لكن بعيد.. بعيد، طفل يحبو وهو ينظر إلى الأرض ثم يرفع رأسه فجأة فيتجمد الجميع، تجمدنا جميعاً وصمتنا جميعاً، حتى دقات القلوب، وغنت فيروز. لم يصدق أحد أنه يرى ويسمع، لم يصدق أحد أنه كان موجوداً في هذا المكان في ذلك الوقت. تلمست جسدي.. ووضعت كفي على وجهي كي لا ترى لبابة دموعي، ثم خطفت نظرة فرأيت جميع الأكف وقد غطت جميع الوجوه.

انتهى الفصل الأول وغادرت فيروز إلى استراحتها وبدأنا رحلة انتظار أخرى، لكن هذه المرة مع ثوار جدد، فقد اندلعت الثورة الثانية في الاستراحة، وكانت ثورة عبوات المياه البلاستيكية إذ كان المتمردون الجدد يرمون بعبوات المياه البلاسيكية من الأعلى إلى الأسفل، فترتطم العبوة برأس أحدهم فيرميها أوتوماتيكياً باتجاه رأس آخر على الدرجات الدنيا، وبالطبع فقد نلنا نصيبنا عندما سقطت عبوة على رأس لبابة فأمسكت بها كي ترميها لكن كان لأحمد أن ينتزع العبوة وينال شرف رميها بنفسه. ويا لهول ما حدث، فقد ارتطمت العبوة برأس العميد الآمر الناهي في ذلك اليوم. نظر العميد إلينا فأشرنا بدون تردد إلى أحمد في لحظة خيانة تاريخية لا شعورية، وكانت ليلة القبض على أحمد.

بعد اقتياد أحمد إلى سجن المسرح توسلنا العميد والملازم الفخور بمعلمه أن يَخرج ولكن العميد رفض ذلك وقال بأنه لن يخرج إلّا بعد انتهاء الحفلة كعقوبة يجب على أحمد أن لا ينساها طيلة عمره، وأية عقوبة؟.. حرمانه من فيروز، وبالطبع فقد وافقنا نحن الخونة على التسوية، بل وسرعان ما نسينا أحمد مع الظهور الخيالي الثاني لفيروز.

اندمجنا كلياً، وكانت سراب يونس أكثر المندمجين، كيف لا وهي التي تغني لنا أغاني فيروز كل يوم بصوتها المنتمي إلى أمة فيروز، بل إنها سجلت شريطاً مع ميادة بسيليس وهاسميك لأغان فيروزية قديمة وبتوزيع سمير كويفاتي ذلك الصديق الحنون وأحد أشاوس أمة فيروز الممتدة إلى ما لا نهاية، وذلك في العام ١٩٨٥ أيضاً.

انتهى الحفل ولم ينته، كانت كلما همّت بالذهاب نعيدها إلينا. لو ظلت فيروز تستجيب لأصواتنا المطالبة بعدم ذهابها لبقيت واقفة على مسرح بصرى وسط بكائنا وتصفيقنا طيلة الزمان.

لكن لكل حلم نهاية، وكانت نهاية حلمنا كابوس المغدور به «أحمد جمالي» القابع خلف القضبان يرزح في القيود والأصفاد والأغلال وهو يغني أغنية لفيروز تدعى «يا حرية» «يا زهرة برية». هرعنا نبحث عن العميد لكن دون جدوى، اختفى العميد الظالم، وباص الجامعة ينتظرنا. رحلتنا إلى تدمر طويلة، والمخرج ينتظرنا نحن الكومبارس العتيد.

أرسلنا الجميع إلى الباص بعد أن تبرعنا بإحضار أحمد أنا وعثمان، وفي غمرة بحثنا اليائس عن العميد عثرنا على الملازم. قلنا للملازم

بأننا نريد زميلنا، فقال لنا بعنجهية بأنه لا يستطيع إخراجه إلّا بأمر شخصي من العميد.

ـ لكن العميد قال بأن تخرجه بعد انتهاء الحفل.
ـ لا أستطيع.
ـ والحل؟

ـ نذهب ونقابل العميد، قالها لنا وكأنه يشجعنا على ذلك. وافقنا.. ومشينا خلفه إلى حيث العميد ودخلنا في ممرات مظلمة واجتزنا دهاليز أثرية من دهاليز مدرج بصرى الروماني الشهير إلى أن وصلنا إلى بوابة فخمة مغلقة. كان هناك بعض الحراس الذين سمحوا لنا بالدخول مع الملازم إلى أجمل قاعة رأيتها في حياتي، ليس لأنها باهرة التصميم، وليس لأنها تضم نخبة النخبة من البشر الجالسين إلى مائدة عشاء طويلة، وليس لأننا شاهدنا أعضاء فرقة فيروز الجالسين إلى العشاء، وليس لأننا شاهدنا العميد شخصياً كي يُفرج عن صديقنا أحمد، بل لأننا لم نشاهد كل هذا، لم نشاهد سوى حلمنا الوحيد منذ أن خلقنا وهو يتجسد في صدر المائدة، إنها فيروز بثوب خرافي وشعر سابل يكاد أن يكون موسيقا، بل إنه موسيقا.

أشار الملازم إلينا وهو يحادث العميد ولكن العميد الذي نهض من على كرسيه البعيد عن فيروز وعوضاً من أن يتجه إلى الملازم وعثمان اتجه نحوي، نعم نحوي.. فقد كنت في تلك اللحظة قد أصبحت واقفاً بهيئة راكع بجانب فيروز، ووقف العميد إلى الجهة الأخرى من فيروز وقال لي: شو مشكلتك؟ نظرتُ إليه ثم قلت لفيروز «أنا بحب ابنك زياد»، نظرت إليّ فيروز أنا ابن التاسعة

عشرة عاماً وسبعة آلاف حالة ارتجاف وخمسة آلاف لون ممتقع وريق ناشف وملايين الملايين من ضربات آلة مسكينة تدعى القلب وقالت لي.. نعم.. قالت لي، أنا لقمان ديركي ابن حسين وشاهي مواليد الدرباسية في ١٩٦٦/١/١ ليلة رأس السنة في الساعة الثانية عشرة وثلاث دقائق.. نعم.. أنا هو الذي قالت له «وهو كمان بيحبك»، نظرتُ إلى العميد بفخر واعتزاز فوجدته في تلك اللحظة يحترمني جداً جداً..

نظر العميد إلى فيروز ثم قال لي بحنان، «شو القصة يا ابني؟» قلت له بأن صديقي سجين عندهم وهو لن يخرج إلّا بأمر منه شخصياً وإنه وعدنا بإخراجه بعد انتهاء الحفل وأننا ممثلون ولدينا تصوير فيلم سينمائي في تدمر. وأضفت بأنني شاعر أيضاً. قلت كل ذلك وأنا أنظر إلى فيروز، قالت لي فيروز.. نعم.. مرة ثانية قالت لي شخصياً «وليش محبوس» حاولت الإجابة ولكن سيادة العميد سبقني وقال لها باعتزاز شديد مبتسماً ومشيراً إلى نفسه «ضربني بقنينة المي على راسي». نظرت فيروز إليَّ مستفسرة ومستنكرة ما حدث فخفضت نظري واعترفت لها بالذنب العظيم «أي مظبوط.. ضربه على راسه بالقنينة» خاف العميد أن تزعل فيروز، فقال لها «كانوا عم يلعبوا.. يعني مزح ست الكل»، نظرت فيروز إليَّ معاتبة وقالت لي بمزاح محبب بل وكادت أن تقرصني من خدي «أي بيستاهل.. لازم ينحبس.. معقول في حدا بيضرب الناس بالقناني بحفلتي؟»... ضحك الحاضرون جميعاً واكتشفتُ لحظتها أن أنظارهم وأسماعهم مشدودة إلى حديثنا بينما كان العميد يؤكد لهم بفخر شديد بأن العبوة وقعت على رأسه هو شخصياً. استغل العميد الحادثة كي يطيل المحادثة مع فيروز وقال لها «ست الكل.. أنا سامحته كرمالك.. وإذا بتسامحيه سيادتك رح بطلعه من الحبس»، نظرتُ

إلى فيروز بتضرع كي تسامح أحمد.. استنجدت بعثمان فوجدته يمدّ يده إلى الطعام ويأكل ما تيسر منه.. بل وشاهدته يسرق حبتي أناناس ويضعهما في حقيبته الثقافية.. تابعتُ نظرات التضرع ثم قلت لها.. لفيروز طبعاً.. «حضرتكم بتعرفوا أنو أنا بحبو لزياد».. وفكرت.. طالما أنني أحب زياد فإنها ستعتبرني مثقفاً وبالتالي فإنها ستعتبر الحالة كلها لعب بلعب كما قال لها الضحية نفسه.. سيادة العميد..

نظرت إليَّ فيروز وقالت «خلص.. سامحته» ثم قالت للعميد «طلعوه».. انتفض العميد وأعتقد أنه ألقى تحية عسكرية لها وقال «حاضر سيدي» ثم قال للملازم «طلعوه» فألقى الملازم بدوره تحية عسكرية للعميد وقال «حاضر سيدي» وقال لي «يا الله إمشِ معي». لم أمشِ بقيت واقفاً، نظرت إليَّ فيروز مبتسمة وسعيدة بعد أن انتهت المشكلة وفجأة هجمت على يدها وقبّلتها ووضعتها على رأسي ثم مضيت خلف الملازم ولمحت في غمرة سعادتي الخرافية عثمان وهو يأخذ صدر دجاجة على الماشي ويركض خلف الملازم.

كانت الساحة في الخارج خاوية تماماً إلّا من باصنا المنتظر، وكان الأسير قد تحرر وهو يمشي بجانبي. صعدنا إلى الباص، وانطلق باصنا من جديد، جلس الجميع يستمعون إلى مغادرة أحمد في الأسر في سجون العدو الغاشم وهو يحيون صموده بينما كان عثمان يحاول أن يعرف كيف تؤكل حبات الأناناس دون جدوى، وأنا كنت أفكر أنني قابلت الأميرة.. تحدثت مع الملكة.. بل إنها حدثتني أيضاً.. بل ابتسمت لي.. بل ضحكت لي. كنتُ أنظر إلى الوجوه المرحة في الباص وأقول في نفسي: «يا إلهي.. إنهم لا يعرفون من أنا.. لو عرفوا.. ماذا كانوا سيفعلون»؟.. نعم.. أنا هو..

بذاته.. من قابل الملكة.. بل وقبّل يدها أيضاً.. نعم.. سأنجب الكثير من الأطفال.. فقط لأقول لهم إن والدهم فعل ذلك في ليلة خريفية من ليالي عام ١٩٨٥.

المؤلف

من شعراء جيل الثمانينيات في سورية.

ولد في بلدة الدرباسية على الحدود التركية ـ السورية، عام ١٩٦٦.

له الكتب الشعرية التالية:

ضيوف يثيرون الغبار، دار الفكر، حلب، ١٩٩٤.

كما لو أنك ميت، وزارة الثقافة في دمشق.

وحوش العاطفة، دار كنعان، دمشق ٢٠٠٠.

الأب الضال، دار ألف، دمشق ٢٠٠٣.

الأعمال الشعرية، دار أميسا، دمشق ٢٠٠٦.

عمل في الكتابة والإخراج والتمثيل في المسرح والتلفزيون.

من مؤسسي مجلة **ألف** ١٩٩٠، وجريدة **الدومري** ٢٠٠١.

لقمان ديركي

من سيرة الهر المنزلي

وكان الأستاذ يختبئ مع الآنسة ريما بين الأشجار، وعندما كانا يظهران كان فم الآنسة ريما يصبح أحمر مثل جمر أركيلة الشيخ خضر.

ثم قال لنا الأستاذ: "لا تسبحوا في النهر لأن فيه برّامات" وسبح هو والآنسات وأصدقاؤه، وكان الأستاذ يغطس تحت الآنسة ريما ويختفي، وكانت الآنسة ريما تصرخ ضاحكة: "آي"، ولكن آرتين لم يسمع كلام الأستاذ، وسبح في النهر، فغرق، فضربه الأستاذ ثم أنقذه، وصنع له التنفس الاصطناعي، وقال للآنسة ريما: "هيا اغرقي بسرعة".

(من الكتاب)

ISBN 9953-21-243-0

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS